كلمات

□ ١ □

ليس بالسلاح ، وحده ، بل بالثقافة ، أيضا ، يغزونا العدو . ولعله، في غزوه هذا، يرتكز على الثقافة أكثر مما يرتكز على السلاح . ذلك انه لا يستهدف احتواء الارض ، فقط . فلكي تكون الارض طيعة تحت قدميه الغريبتين ، ينبغي أن تكون بلا بشر ، السلاح وحده لا يقتلع الانسان من أرض . ينكسر السلاح بسلاح مقابل . والذراع الطويلة، مهما قست، تلويها الشعوب التي ترفض اقتلاعها من الارض ، جيدا ، يعرف العدو تلك الحقيقة . فلقد قرا ، كما قرانا ، التاريخ . والتاريخ يختصر الغزو على الارض بالانحسار .

□ ٢ □

ينكسر السلاح بسلاح مقابل ! تلك ، أيضا ، حقيقة . انما ، لكي يفعل هذا ، ينبغي أن يكون على معرفة كاملة بسلاح الغزو . ولان المعرفة نقيض الجهل ، يكون من السذاجة ان نتجاهل اسلحة العدو . لكي تتوازن الاسلحة ، ينبغي أن لا تكون أسرار . تلك أولى مسلمات الحرب ، ولعلنا ، جميعا ، نعرف كم ينفق العالم من اجل امتلاك الاسرار .

□ ٣ □

أخطر الغزو ، اذن ، غزو الثقافة . ذلك أنه وحده الذي يمتلك القدرة على اقتلاع البشر . يفرغهم من الداخل ، ويدعهم خاوين . وحين ينهزم الانسان من داخله ، حين يفرغ ويصير خاويا ، يصير قابلا للسقوط أية لحظة . هكذا تصير الارض طيعة ، وبلا مدافعين : يسقط الانسان ، فتسقط الارض . ان الثقافة الغازية لا تحلم باكثر من هـذا : أن تهدم بنـاء الانســان !

□ ٤ □

كما نبحث في توازن الاسلحة ، علينا ان نبحث في توازن الثقافة . فالمجابهة ينبغي أن تتكامل ، واذا كان غباء تجاهل أسلحة العدو ، فان الغباء الاكبر هو تجاهل ثقافته . آن أن ينتهي عصر النعامة العربية ، ليبدأ عصر زرقاء اليمامة . آن أن نرى عدونا جيدا . أن نراه من داخله ، يعني أن نعرف كيف يفكر ، يعني ان نعرف كيف يرانا . ولأن الادب هـو المرآة الاكثر كشفا، ينبغي ان ننظر، بعمق، الى مرآة العدو.

□ ٥ □

في هذا العدد من « المعرفة » نلقي بعض الضوء على احد وجوه تلك المرآة : الشعر !

الشعر الصهيوني والمستقبل ؟ بلى !

فليس كالشعر ما يكشف نزوع الانسان . وهذا الشعر الذي بين يدينا يكشف ، بوضوح ، طبيعة الوحش المتحفز في عنصرية العدو : الحقد على الاطفال ، شهوة الـدم والموت ، البعد اللا انساني لتاريخ ذلك الاله الاسود ، شهوة دمـار العالم ... يكشف ايضا ، وبصورة فاضحة ، خراب الروح التائهة في ذلك الجسد الغريب المزروع على ارضنا بقوة السلاح وحدهـا .

نبدأ بالشعر ، ونطمح أن لا نتوقف .

رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

نحو علم عربي للسياسة

الدكتور جورج جبور

العلم: جهاته وحدوده

بقلم: فكتور وايسكوبف

ترجمة: عبد الكريم ناصيف

دور الجنس والموت في الابداع الأدبي

حنا عبود

نحو علم عربي للسياسة

الدكتور جورج جبور

تقديم الدراسة :

جمعية عربية للعلوم السياسية : بعض معالم

من الممكن القول ان العلوم السياسية اقدم او من اقدم علوم الانسان ؛ الا ان الصيغة « التنظيمية » لهذه العلوم حديثة ، كما هو شأن غيرها من العلوم الاجتماعية .

ولاسباب ليس هنا مجال شرحها ، كان للولايات المتحدة الامريكية قصب السبق في انشاء اول جمعية للعلوم السياسية في عالمنا المعاصر ، اذ انشئت الجمعية الامريكية للعلوم السياسية عام ١٩٠٨ ، في فترة شهدت مولد عدد كبير من الجمعيات الامريكية المختصة في فروع العلوم المختلفة .

وفي العالم الاشتراكي ثمة جمعية سوفيتية للعلوم السوفييتية انشئت على نحو ما اقدر اواخر الاربعينات ،

وربمـا انشئت في سياق محاولـة مـن الاتحاد السوفيتي للافادة على احسن قدر مستطاع من جو التعاون الدولي ولدعم هذا الجو ، الذي خلقه قيام منظمة الامم المتحـدة وعائلتها من المنظمات المختصة ، وفي طليعتها اليونسكو . ومن المعلوم ان الاتحاد السوفييتي لعب دورا قياديا بارزا في قيام منظمة الامم المتحدة وعائلتها .

ثم في نطاق اليونسكو ، وبجهد رائد منها ، تم انشـاء الجمعية الدولية للعلوم السياسية عام ١٩٤٩ ، وبها ثلاثة أنواع من العضوية : عضوية جمعيات وعضوية ردفاءوعضوية افراد . وهذه الجمعية الدولية للعلوم السياسية تعقد كل ثلاث سنوات مؤتمرا دوليا للعلوم السياسية ، يستقطـب ابرز مختصيالعلوم السياسية في العالم لاسيمـا بشقيه : الاشتراكي والغربي ؛ كما تصدر عددا من المجلات المرجعية مجلة مرجعية عالية المستوى تعرّف بأهم ما يصدر في حقل العلوم السياسية لدى كل دول العالم .

هذا ، وقـد نعرف بهـذه الجمعيـة على نحـو اوفـى في مرحلة لاحقة ، ونستعرض محاولتنا معها عام ١٩٧٤ وما بعده تكريس بعض من فعالياتها لدراسة مفهوم الاستعمـار الاستيطاني .

وعلى الصعيد العربي انشئت في النصف الثاني مـن الخمسينات جمعيتان للعلوم السياسية ، مصرية ولبنانية .

فاما المصرية فقد حظيت بتشجيع رسمي . فكان رئيسها ورائدها الدكتور عبد القادر حاتم ، وكان لها مجلتهـا العلمية ، ولا بد أنها عقدت مؤتمرات علمية ، ثم اصابهـا هرم مبكـر .

واما اللبنانية فكان رئيسها ورائدها الدكتور حسن صعب ، وكانت لها مؤتمراتها الجدية ، واهمها مؤتمران ، واحد ناقش مسالة الديمقراطية في الاقطار العربية وعقد في بيروت ايام ٥ و ٦ و ٧ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٥٩ وثانيها (ولعله ثالثها واخرها) ناقش مسالة التكامل العربي وعقد في بيروت عام ١٩٦٥ . ثم من الارجح انه اصابها هرم مبكر هي الاخرى .

وسيكون من المفيد أن يظهرنا رئيسا الجمعيتين ورائداهما، ولكل منهما أثر بين في الحياة الفكرية والحياة العامة العربية ، على تجربتهما ، ولا سيما وان ثانيهما ، وهو الدكتور صعب ، استاذ قبل كل شيء ، وكان له قطعا فضل الاولية في التبشير بوجوب انشاء جمعية عربية للعلوم السياسية ، وفي العمل باتجاه ذلك الهدف الجليل .

وفي فترة لاحقة ، وربما في بدايات الستينات ، انشئت جمعية أو نواة لجمعية عراقية للعلوم السياسية ، ولست على اطلاع كاف على ظروف انشائها وفعالياتها . ولا يعدو ما اعرفه عنها الا نقاطا استقرت في الذاكرة (والذاكرة تخطىء) من احاديث شفهية سمعتها من اصدقاء . اما ما اعلمه يقينا فهو أن كلية حقوق جامعة بغداد ، غيّرت ، عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ، أسمها فاصبحت تعرف باسم كلية الحقوق والعلوم السياسية ، وعدلت مناهجها فخرجت من الاطار التقليدي للدراسة الحقوقية الى الافاق الاحدث والارحب للعلوم السياسية . وبها الان ما يقرب من ثلاثين استاذا للعلوم السياسية ، تضمهم وغيرهم من اختصاصيي السياسة جمعية خاصة بهم .

كذلك ثمة جمعية للعلوم السياسية في المغرب ، وقد بدات صلة معها عام ١٩٧٧ ، وكان رئيسها اذ ذاك الدكتور محمد البوزيدي . وجاءت صلتي معها في نطاق محاولتي ، عام ١٩٧٧ ، انشاء جمعية عربية للعلوم السياسية .

واخيرا ففي السعودية جمعية للعلوم السياسية انشئت قبل سنوات ، على نحو ما علمت سماعا .

وما اتصل بعلمي نبأ عن غير هاته من جمعيات عربية للعلوم السياسية .

ويبدو لي ان معظم هذه الجمعيات يجسد جهدا فرديا لمهتم نشط فعال . واذ يستهلك مثل هـذا المهتم النشط الفعال نفسه في عمليات تاسيس الجمعية ، فمن المرجح الا يجد من ((نسله)) من يتابع عمله ، فتصاب الجمعية المنشاة بعارض الهرم المبكر ، وتصبح على نحو ما كانت تصف به زوج صخر ــ اخي الخنساء ــ ذاك الذي كان لاخته علما في رأسه نار : لا حي فيرجى ، ولا ميت فينسى !

وذلك بالطبع أمر مفهوم في معظم البلاد العربية ، حيث ليس ثمة (كثافة) في عدد المختصين في العلوم السياسية . كما أنه مفهوم ((كيفاً)) أيضا ، اذ ليس ثمة رسالة تحرك العلوم السياسية لدى هؤلاء المختصين العرب بها ، فجلهم متابع ، او متبع ، كما يقال في معرض اخر يعارض به الاتباع بالابتداع .

وذلك الاتباع بدوره ، مفهوم هو الاخر . فما المختص بالعلوم السياسية الا ابن مجتمعه ، يرشد حيث يرشد ذلك المجتمع ، ويغوي ، كما ابن غزية ، حين يغوي . وصعب استقرار تقاليد لعلوم سياسية عربية ، تنبثق عنها رسالة ويحمل عبء الرسالة مبدعون ، في جو اجتماعي ((سديمي)) لم تتضح بعد اجابته على اول ما يسأل الكائن الحي نفسه

عنه اذ ينضج : من انا ؟ من انا في عمقي ، في إنيتي ، وفي مواجهة الغير .

الدراسة التالية تحاول فتح طريق الى علم عربي للسياسة . فيها صلف الفتح وفيها وعورة الطريق الا ان فيها اتضاح الهدف واتساقه مع اهداف الامة العربية .

وفي ندوة عقدت مؤخرا عن « اوضاع العلوم السياسية في الاقطار العربية » كان للطرح الذي قدمته هذه الدراسة اثره ، فتجسد ما فيها جليا في المآل ، وابطلت نظرية نادى بها انصار « علم سياسة لعلم السياسة » ، وانصار « علم سياسة لا يتدخل في السياسة » ... الا ان للندوة وما كان قبلها وما جاء بعدها حديثا غير هذا ، نرجو الا نضطر اليه فهو ذو شجون موثقة !

١٩٨٥/٣/١٢ — جورج جبور

* * *

اولا ــ ما هو علم السياسة ؟

ليس سهلا تقديم تعريف لعلم السياسة ، ذلك العلم الذي ابتدا مع بداية ترتيب الانسان لشؤونه العامة على كوكبنا هذا . وليس صعبا في الوقت نفسه تقديم تعريف لهذا العلم القديم ، لان ما من حكيم تصدى للامر الا ترك لنا تعريفا صالحا .

ثم ان من الممكن لنا ، بين الصعوبة والسهولة في اعتماد تعريف لعلم السياسة ، تقديم جميع انواع التعاريف « المركبة » . فمن السهل تجميع التعاريف وتصنيفها . كما ان من السهل الجمع بينها . كما ان من السهل « تطويل » التعريف ليشمل كل ما يخطر بالبال .

ولن نخوض في كل ذلك . يكفي هنا ان الفت النظر الى تعريف قدمته للفكر السياسي على انه « التعبير الاعم لتلك الفعالية الذهنية التي يقوم بها الانسان لدى تصديه لمعالجة المسائل الكبرى الناجمة عن التنظيم الهرمي للاجتماع البشري »(١) .

وهذا التعريف الذي قدمته يمكن ان تضاف اليه كلمة واحدة لينسجم مع تعبير علم السياسة ، أو العلم السياسي ، فيصبح :

« التعبير الاعم لتلك الفعالية الذهنية المنظمة (وهي الكلمة المضافة) التي يقوم بها الانسان لدى تصديه لمعالجة المسائل الكبرى الناجمة عن التنظيم الهرمي للاجتماع البشري » .

---

(١) انظر جبور : أملية : فصول في تاريخ الفكر السياسي ، قسم التاريخ جامعة دمشق ، العام الدراسي ٧٦ ــ ١٩٧٧ ص /١/ .

ولهذا التعريف فضيلة وظيفية هامة هي تحديده السياسة بأنها « المسائل الكبرى » . أما العلم ففعالية ذهنية « منظمة » . وهو بهذا يختلف عن الفكر الذي قد لا يرتبط به كل ما جرى العرف على ارتباط العلم به من تنظيم .

والحق انه اذا كان ثمة وضوح في صميم ما تتعامل به السياسة ، وهو اساسا شؤون الحكم ، الا ان ثمة غموضا في حدود السياسة . وفي اعتقادي ، يظل اي تعريف منطقي متماسك للسياسة قاصرا عن مجاراة **السياسة في حركيتها اليومية. ذلك ان المتابعة اليومية تعلمنا ان السياسة ليست بما هي ،** بل بما يراها الناس. فما ينشغل به الناس ، **عامةالناس، هو سياسة وان لم تستبن سياسيته للوهلة الاولى** . وبالمقابل ، **قد يكون** اهم بحث دستوري أو سياسي خارج اطار السياسة ، ان لم يحظ في جوهره ، وفيما يترتب عليه ، باهتمام الناس .

هذا التعريف للسياسة ، الذي يجاري حركيتها اليومية ، يجعل منها ، كما هي ، ثمة العلوم الاجتماعية ، أو العلم الذهبي لهذه العلوم (التي أفضل ان يطلق عليها اسم علوم السياسة من حيث ان المجتمع ، كمجتمع ، انما هو في التحليل المنطقي له ، المادة الخام للبشر الذين ، بوعيهم لعلاقاتهم ، يصبحون مجتمعا سياسيا . تدرسه علوم السياسة ، وقمتها علم السياسة) .

وعلى كل حال ، لن اخوض هنا معركة للدفاع عن التعريف الذي اقترحه لسببين هما :

١ — أتوقع أن تجابهني ردود « مدججة » بجميع انواع المقتطفات والمستخلصات والتعاريف من كتب شخصيات أوروبية — أمريكية اشتهرت في مجال علم السياسة . واتوقع ان يكون اصحاب الردود من الذين تحكمت بهم ، على فترة زمنية طويلة ، مدارس فكرية معينة

اصحابها الشخصيات الاوروبية ـ الامريكية المشار اليها آنفا . واتوقع بالتالي الا يؤدي الحوار الى نتيجة ايجابية .

٢ ـ أود ان اخلص بأسرع ما يمكن من المسالة الفكرية القديمة ـ الجديدة حول تعريف علم السياسة ، لاتقدم الى تبيان الجوهر الـذي كتبت هذه الصفحات من اجل تبيانه ، والذي ارحب الترحيب كلـه بتركز النقاش عليه لانه منبثق مـن صميم السياسة اليومية العربيـة الماشة . .

ثانيا : كيف يكون علم السياسة عربيا ؟

من حيث ان العلم شمولي فليس ثمة مكان لاضفاء صفة قومية عليه، وهكذا فكأن القول بوجود علم عربي يحمل تناقضا بين حدي التعبير .
ولهذه الفكرة البسيطة نظائر لها فيما بحث فيه مفكرونا القوميون بشأن الاشتراكية ، حتى انتهى القول ، لدى معظم القوميين العرب الاشتراكيين، الى ان ثمة طريقا عربيا للاشتراكية وليس ثمة اشتراكية عربية .

ولكن ثمة علما عربيا للسياسة بمقتضى ما قلناه من ان علم السياسة هو علم المسائل الكبرى لمجتمع ما ، هو هنا المجتمع العربي . وهكذا يصبح المعنى المشخص للعلم العربي للسياسة ، هو علم المسائل الكبرى التـي تشغل المجتمع العربي . وهذا المعنى المشخص للعلـم العربي للساسة يصعد بالعلم المقترح الى مصاف علم السياسة كما تطور في العالم الغربي (اوروبا الغربية وامريكا الشمالية) او كمـا تطـور في العالـم الشرقي (اوروبا الشرقية) .

ذلك ان الحقيقة التي تغرب عن بال كثيرين منا ، من الذين تخصصوا في العلوم الاجتماعية سواء في العالم الغربي او العالم الشرقي ، هي ان علم السياسة الذي تلقيناه انما هو علم سياسة المجتمعات التي درسنا ذلك العلم فيها ، وليس علما شموليا كما يراد لنا ان نؤمن ، مجاراة منا لايمان معلمينـا .

ولناخذ مثلا بسيطا اوليا من القانون الدولي . كان لهولاندا مصلحة معينة في تنظيمات خاصة بقانون البحار . وفي ترتيب المصالح المتضاربة بين الدول كانت القوة هي المعيار . ثم في فترة نضج حضاري معين ينبثق من النضج رجل مثل غروشس تحركه مصلحة بلاده ويحركه الوعي العلمي الواسع ، فيضع قانونا دوليا ، او بالاحرى مقالة مطولة موثقة في قانون البحار ، ويكون لمصلحة هولاندا في قانون البحار هذا نصيب . واذ ان لهولاندا قوتها العسكرية كما لها مؤسساتها العلمية ، فهي بقوتها تدافع عما تراه حقوقها البحرية ، وهي بمؤسساتها العلمية تكرس غروشس أبا للقانون الدولي ، وتكرس غيره تلاميذا له يدرسون عليه ، وتزيد بالعلم دعمها لحقوق بحرية لدى تلاميذ غروشس هؤلاء ، بعد ان تقنعهم بحياد العلم لانه شمولي ، وحياد القانون الدولي ، وهو ارسخ العلوم الاجتماعية واكثرها اقترابا (ظاهريا) من الشمولية . اما الدارس على غروشس فيصبح ايمانه الفعلي بمصلحة هولاندا جزءا من مقاربته الفكرية للقانون الدولي .

واذا كنت اخذت غروشس مثالا من القرن السابع عشر ، فلانه يعتبر اب القانون الدولي كما تعلمنا في كليات الحقوق . واذا كان لاحد ان يقول: ذلك كان في القرن السابع عشر ، ثم تقدم العلم ، او القانون ، واصبح اكثر موضوعية ، فلأذكر أنني كثيرا ما قرات بمثابة الاعمال المشتركة الضخمة لماك ـ دوغال ولاسويل (من كلية حقوق جامعة ييل الشهيرة في الولايات المتحدة الامريكية) . ويعرفها حتما كل من اختص منا في العلوم الاجتماعية في امريكا . لاكتشف ان المغزى العام لها هو محاولة المساواة بين سياسة امريكا الخارجية وبين القانون الدولي : هذه تساوي ذاك ـ وهذا يساوي تلك .

وبالطبع تأخذ مسالة « هوية العلم » أو قوميته ، أبعادا أدهى حين يغرق التلميذ (من البلاد النامية) في محاكاة المعلم (المتقدم) فيصبح فهمه له (فهم التلميذ للمعلم) معيار الحضارة أي التقدم ، ويصبح في فهمه له، متعصبا لفكر المعلم ومجتمعه الى ابعد الحدود، حتى لكانه يرى في هذا التعصب هوية له ضمن مجتمعه النامي (الآخذ) . وعلى نحو كاريكاتوري عجيب يصبح المتعلم فينا متعلما بقدر ما يهدر من حقوق بلده باسم الالتزام بالقانون الدولي مثلا ، او قواعد العلوم الاجتماعية وما اشبه . واذكر .

عابرا . مثالين مشخصين من سورية ومصر . وهما في طليعة البلدان العربية تقدما علميا . ففي سورية ايام قرار تقسيم فلسطين ارتفعت في مجلس النواب الذي بحث ذلك القرار اصوات فقهاء في طليعتهم استاذ في كلية الحقوق تحذر من مغبة عدم اعترافنا بقرار تصدره الامم المتحدة . وفي مصر ، حضرت قبل نحو من عشر سنوات (ولدي التاريخ بالضبط) محاضرة فقيه كبير جدا ، كنت من بعد ، احلم بأن اجلس معه ، فاذا به يشن في محاضرته حربا ضروسا على مفهوم حركات التحرر الوطني نافيا هذا المفهوم من قاموس القانون الدولي ، مستعملا لغة تكاد لغة جون فوستر دالاس بالمقارنة معها تعد لغة تقدمية . فاما الفقيه الكبير فهو الدكتور وحيد رافت ، وكان يتكلم في الجمعية المصرية للقانون الدولي[1] .

ولنعد الى ما في الساحة العربية من علم سياسة ، ولننظر اليه ، فماذا نجد ؟

بتبسيط كبير ، نجد في الساحة العربية لعلم السياسة اتجاها غالبا للعلم الامريكي للسياسة وهو اتجاه اما انه اتى جديدا لم يسبقه شيء ، كما هو الحال في جامعات الجزيرة العربية والخليج العربي والاردن والسودان ، أو نما على حساب العلم الفرنسي للسياسة الذي كان تطور في فرنسا ضمن كليات الحقوق ، وتلك هي حال جامعات مصر والعراق . ثم اننا نجد اتجاها للعلم الفرنسي للسياسة في المغرب العربي . الا ان العلم الفرنسي الراهن للسياسة انما هو ، في اساسياته ، ترجمة فرنسية للعلم الامريكي للسياسة . وثمة بالطبع هنا وهناك ، تاثيرات للعلم البريطاني للسياسة ، وهي الاقل شأنا بالمقارنة مع التاثيرات الامريكية والفرنسية .

وايا كانت هوية العلم الغربي للسياسة فهو قليل الوثوقية (الدوغمائية) منفتح على العملية (البراغماتية) ومبشر مستمر بمفهوم

١ ــ ذكرنا اسم الفقيه المصري المنتقد لانه ما يزال حيا يرزق يستطيع الدفاع عن نفسه .

الحرية ، نتيجة ظروف تاريخية قديمة وراهنة . **ولهـذا يعنى العلـم الغربي للسياسة بشؤون تنظيم السلطة ومعارضتها على نحو خاص .**

ثـم ان في الساحة العربية لعلـم السياسة اتجاها للعلـم الماركسي للسياسة ، له اثر في عدد من اعمال علماء **السياسة المصريين الماركسيين.** والعلم الماركسي للسياسة توقي مبشر بمفهوم العدالة او الاشتراكية ، ويعنى عناية خاصة بالمراحل المتتابعة لتطور الطبقات وصراعها،ومايوازيها من مراحل على الصعيد السياسي .

وبالطبع فان جمع هوية جغرافية (العلم الغربي) **الى هوية فكريـة (العلم الماركسي)** لعلـم السياسة ، لا يغطي الحقل كلـه ، **ففي العالـم** الشرقي ثمة ، لاشك ، انحصار بالماركسية ، **الا ان لدى الغرب ماركسياته** ايضـا .

ثم ان هذا التواجد المتجايب لمدارس فكرية مختلفة في علم السياسة، على السـاحة العربية لم ينتج عنه بعد فهم متبادل . فكل عالم سياسة منا درس في الغرب ميال ، قبليا ، الى نفي كل علم سياسة شرقي بعلـة دوغمائيته . وكل عالم سياسة منا درس في الشرق ميال قبليا الى نفي كل علم سياسة غربي بعلـة بورجوازيته . ومن الطريف ان مصـر عبـد الناصر ، بتوجهاتها المعروفة ، كانت غربية في علم سياستها كما كان يدرس في جامعاتها(١) . وان سورية البعث ،بتوجهاتها المعروفة ، ماتزال الـى مدى كبير غربية في علومها الاجتماعية كما تدرس في جامعاتها ، ورغـم هيمنة الفكر القومي بوسائل تعبيره الكثيرة على الجو الاكاديمي العام . كذلك اذكر ان محاولات جدية جرت في السنوات الاخيرة وماتزال تجري ،

---

(١) هنا مكان لنقطة تامل : الى أي مدى كانت هذه « الغربة » بين مصر عبد الناصر وبين علم سياستها مسؤولة عن الفاجعة التي حلت بمصر بعد عبد الناصر ؟ ولدي اجابتي: « الى مدى كبير » .

ادخلت بهـا الى العلـوم الاجتماعية في الجامعـات السوريـة المفـردات الماركسية .

في الساحة العربية لعلم السياسة ثمة اذن تبعية لتيارات غربية ، أوروبية (بشقيها) وامريكية ، تترك بصماتها واضحة علة ادبياتنا(٢) . وليس هذا الوضع بالفريد في وضعية دراساتنا الاكاديمية عامة ، كما انـه ليس بالوضع الذي لا يمكن فهمه ، الا ان في الاستمرار فيه خطا وخطر ما بعدهما خطأ وخطر .

فاما الخطأ فعلمي ، ووجه الخطأ فيـه واضح . ذلـك ان العلـوم الاجتماعية ـ ولاسيما علم السياسة ، انما هي علوم مجتمعات معينة ، او على الاقل علوم تتأثر بمجتمعات معينة هي المجتمعات التي انبثقت عنها . وما فيها مـن كلية ـ اي شمولية انما هي كليـة محددة بموقـع العالم وموقع مجتمعه في العالم .

وأما الخطر فقومي ، اذ يصبح اخصائيينا « مغتربا » عـن مشاكل أمته ، اسيرا لاطر تفكير مفروضة عليه ، ضمن ظروف معاشية مفروضـة

(٢) في عام ١٩٧٢ ، وكان الجو جو تفاؤل (وان محدود) بقيام اتحاد الجمهوريات العربية ، وكان عام تفاؤل خاص بي ايضا اذ شهد بداية اثمار في محاولتي انشاء مؤسسة لدراسات الاستعمار الاستيطاني المقارن في نطاق جامعة الدول العربية ، تقدمت الـى السيد رئيس الجمهورية العربية السورية باقتراح لانشـاء مؤسسة لدراسات الوحـدة العربية (نشر الاقتراح في وقت لاحق في مجلة المعرفة بعنوان : « مطلوب انشاء مؤسسـة لدراسات الوحدة العربية » عدد ايلول ١٩٧٢ ، الخاص بالوحدة العربية ، كما نشر لاحقا في دوريات اخرى كثيرة) . وفي هذا الاقتراح عددت بعض عوائق تقف في سبيل انشاء ما ادعو « علم الوحدة العربية » وذكرت كمعوق اول :

« اختلاف ثقافات الباحثين العرب باختلاف مصادر ثقافتهم ، وعجز كـل فريق مـن هؤلاء الباحثين حتى الان عـن استيعاب اهتمامات ووجهات نظـر الفريق الاخر . بعض الباحثين العرب درس في امريكا وغيره في فرنسا وفي الاتحاد السوفييتي (الخ) . لكل فريق من هؤلاء « ابطاله » العلميون وهو لا يعرف شيئا عن ابطال زملائه . في حقل دراسـات التغيير الاجتماعي ـ الاقتصادي ثمة منا من تتلمذ على ريمون آرون وعلى كولمان ، وثمـة من تتلمذ على اوليانوفسكي وعلى راتمان ... كل فريق لا يعرف « ابطال » الفريق الاخر ولا يعترف بهم ، فكيف « بتلاميذهم » ، ثم كيف يمكن ان يتعاون معا هؤلاء التلاميذ ؟ »

عليه . وقد احسن في وصف هـذا الخطر القومي الدكتور جلال احمـد امين في كتابه **المشرق العربي والغرب**(٣) ، ويمكن الرجوع الى تفصيل ما اقوله في ذلك الكتاب .

ازاء هذا الوضع الذي نحن فيه اقترح ان نتقدم خطوة اخرى الى الامام فنضع علمنا العربي للسياسة متمحورا حول موضوع واحد هو الهويـة القومية العربية ، وما يشتق منها مما ينفيها وهو الاستعمار الاستيطاني الذي تتعرض له الامة العربية .

ثالثا : موضوع العلم العربي للسياسة :

نجتمع هنا كجمعية عربية للعلوم السياسية ، ومن المنطلق القومي في التسمية التي نجتمع عليها اليوم ، اقول ان هدفنا الاول هو تأكيد الهويـة العربية ، او ينبغي ان يكون كذلك . وآخذها فرصة ان استطرد فاقول ان أول ملاحظة لي على مشروع النظام الاساسي للجمعية التي تجمعنا انه لا ينص على ان العرب امة واحدة ، ولا يذكر الوحدة العربية هدفا لهذه الامة ، رغم انه يقارب ذينيك التعبيرين حين يتحدث عن « الوطن العربي» و « المجتمع العربي » و « مدرسة عربية متميزة » .

وفي اعتقادي انه كما لا يصح ان تؤسس جمعية عربية للعلوم السياسية دون ان يذكر نظامها الاساسي ان العرب امة واحدة وان الوحدة العربيـة هدف ، كذلك لا يصح ان يغيب عن ذهننا ، لحظة واحدة ، ان في المنطقة العربية من المحيط الى الخليج نزوعا الى الوحدة العربية(٤) ، وان العمل لتحقيق هذا النزوع واجب علمي وسياسي وقومي وانسـاني .

---

(٣) من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٤) لي ملاحظة كثيرة على ما جرى من بحوث ـ راي ـ عام حول اختبار النزوع العربي الى الوحدة . ومن وجهة نظر تاريخية ـ سياسية لا يمكنني ان ارى في الاستفتاء الا تبريرا لشك ، لا نشاء له : ومرجعي الانشلوس وبالطبع للاستخبار صعوبات تفوق صعوبات الاستفتاء .

واحسب اننا جميعا في هذا المؤتمر موافقون على اننا « عرب » واننا نود تشكيل جمعية عربية واحدة للعلوم السياسية ، لا اتحادا لجمعيات علوم سياسية في العالم العربي .

واحسب ايضا اننا رغم نزوعنا الوحدوي ، ورغم موافقتنا على اننا عرب ، واننا نعتزم تشكيل جمعية عربية للعلوم السياسية ، الا اننا نجتمع اليوم في قبرص ، وليس في العاصمة الطبيعية للامة العربية ، التي هي القاهرة ، تلك العاصمة التي حرمت من « طبيعتها » ، من تاريخها ومن جغرافيتها ، نتيجة ظروف نعرفها جميعا .

ومن هذا التناقض البسيط الذي ذكرناه فيما سبق يتضح حجم المأساة التي نعيشها . فما العمل العلمي المطلوب منا في هذا الصدد ؟ مطلوب بحث جدي في مسالة الهوية ، بحث هو حجر الاساس في العلم العربي للسياسة .

والملاحظ ان الصورة الراهنة لعلم السياسة تطورت بتنوعاتها المختلفة ، بعد استقرار مفهوم الدولة ـ الوطنية وتطبيقه في اوروبا ، او على الاقل في الامم الاوروبية الاساسية . لذلك نجد علم السياسة في هذه الامم المتقدمة بعيدا ذهنيا ، وغير مرتبط تاريخيا ، بتطور مفهوم القومية وحدود الامة . والحق ان الدعوات القومية في المانيا وفرنسا وايطاليا ، اذ « سبقت » علم السياسة ، اصبحت في تراث تلك الامم وعلومها الاجتماعية ، نبعا ثرا يؤخذ منه دون أن يخضع لصرامة العلم ، وفلسفة موحية موحدة لا يطبق عليها برهان ولا يقام عليها رهان .

اما عن مهام الجمعية العربية للعلوم السياسية ، كما رسمت ملامحها قبل نحو من ثماني سنوات ، فيمكن الرجوع بشانها الى مقالي في الثورة (الدمشقية ١٩٧٧/٢/٢٠) والى مقابلة اجرتها معي مجلة الشبيبة (الدمشقية ١ نيسان ـ ايار ١٩٧٧ ، العدد ٧٣ ـ ٧٤) بعنوان : « مقابلة مع رئيس الجمعية العربية للعلوم السياسية : جمعية العلوم السياسية : لماذا وكيف » ؟

اما في وطننا العربي فقد كان ثمة ما يشبه التوتر بين دعوة قومية عربية نابعة من حاجاتنا اليومية والسياسية والقومية ، وبين علوم اجتماعية مستوردة تبدو بعيدة في همومها عنا كمجتمع ، وان كانت قريبة من كل واحد منا كفرد عاقل .

نقول أنه كان ثمة ما يشبه التوتر بين الدعوة القومية وبين العلوم الاجتماعية وكان هذا التوتر ملاحظا في الموضوع وفي الاسلوب .

ففي الموضوع لم تركز علومنا الاجتماعية على مبحث الهوية ، وهو المبحث الاول في الدعوة القومية .

وفي الاسلوب كان موئل الدعوة القومية الشخصيات والحركات والاحزاب السياسية وكانت لغتها ـ عموما ـ عاطفية . اما العلوم الاجتماعية فكانت الجامعات معقلها ، وكان القيمون عليها ، بالمفهوم العام ، نخبة مستنيرة بعيدة عن السياسة ، مترفعة عن اهوائها .

ونتيجة هذا الفصام بين الدعوة القومية والعلوم الاجتماعية شهدنا اشكالات فكرية ربما كان أجلى ما تمظهرت به معهد الدراسات العربية العليا الذي اسسه في القاهرة المفكر القومي العربي الكبير المرحوم الاستاذ ساطع الحصري .

ولن اشرح هنا ما شهده المعهد من نزاعات فكرية مؤلمة لمؤسسه ابلاما اضطره الى الاستقالة بعد تعرضه لاتهامات اللا ـ علمية(٥) . يكفي ان اقول ان هذا المعهد الذي واكب ، في حداثة فكرته ، معاهد الدراسات الاقليمية في العالم (وعلى راسها معهد الدراسات الدولية العليا في جونز هوبكنز) ، اذ انشيء في منتصف الخمسينات ، ظل يراوح مكانه دون تقدم يذكر في حين كانت معاهد الدراسات الاقليمية في العالم تتقدم بخطى ثابتة ، كبرى وواسعة ، واذا كانت جامعة عين شمس في مصر تفتخر

بحداثتها (لجهة انشائها مركزا لدراسات الشرق الاوسط) فان هذه الحداثة « الاكاديمية » جاءت متأخرة عن فكر الحصري بما يقرب من عشرين عاما . وظل سوء طالع المعهد يصاحبه حتى اواخر السبعينات ، فقد وقعت أثناء اقامتي في القاهرة كأستاذ في المعهد على شهادة عجيبة عن المعهد صدرت عن رئيس جامعة القاهرة آنذاك يصفه فيها بأن مدرسة ثانوية همها الدعوة الاسلامية . ومن الطريف أن رئيس الجامعة هذا — وهو الدكتور صوفي أبو طالب — ليس استاذ ذرة مثلا ، بل استاذ حقوق.

ولنلاحظ ، عابرين ، ان مثل هذا الفصام الذي اشرنا اليه بين الدعوة القومية وبين العلوم الاجتماعية كان له نظيره في تراثنا ، بين علم الكلام الذي هو دفاع عن الايمان وخاصة الاسلام ، وبين الفلسفة وما فيها من شمول وحرية معا ، شمول وحرية ظهرا متساميين عن الدين ، بل ومتجاهلين له ، على نحو ما هو معروف .

قلنا في مكان سابق اننا امة عربية واحدة ولكننا في وضع غير طبيعي كامة . ومن الواضح لدينا جميعا ، كما اظن ، ان عراننا ، كامة ، تتمزق واننا ، ان استمررنا فيما نحن فيه ، فقد يعلن كل حي منا نفسه امة وكل قرية قارة(٦) .

---

(٥) في رأيي ان افضل ما قام به مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت ، منذ تأسيسه وحتى تاريخه ، هو ما يضطلع به حاليا من نشر المؤلفات الكاملة لساطع الحصري . ويلاحظ أن ما يقوم به المركز بعد عشر سنوات من انشائه هو بالضبط ما كنا جعلناه أولا في عمل مؤسسة دراسات الوحدة العربية التي اقترحنا انشاءها عام ١٩٧٢ . اما عن تجارب الحصري الاليمة في جامعة الدول العربية فمسجلة في كتابه ثقافتنا في جامعة الدول العربية .

(٦) من مقدمة مجموعة مقالات لي نشرتها مؤخرا في كتاب بعنوان خواطر مجددة حول مستقبل الوحدة العربية (دمشق ، ١٩٨٤) ص ١٢ .

ثم ان ما يعترينا من تمزق العرى ليس عرضيا . فاذا كانت الوحدة مطلبنا ، كدعاة وعاملين للوحدة العربية ، فان التجزئة مطلب اعدائنا ، وراس حربتهم المستوطنون الصهاينة .

والحق اننا اذا كنا نريد وحدة عربية على ارض الوطن العربي ، فان اهم معوق لهذه الوحدة ليس الحدود السياسية القائمة بين البلاد العربية (فقد ثبت في تجربة الوحدة عام ١٩٥٨ انه ليس من الصعب الغاء هـذه الحدود) بل وجود كتلة من المستوطنين في قلب هذا الوطن العربي .

ولو لم تكن هذه الكتلة من المستوطنين قائمة في قلب هذا الوطن العربي لأمكن التقدير ، بأن الامة العربية ، في مدها الذي عرفته ايام الخمسينات بمناهضة الاستعمار الغربي التقليدي ، كانت مستطيعة بناء وحدتها من نواة وحدة متصلة جغرافيا مؤلفة من بلاد الشام ومصر .

لكن المد العربي ايام الخمسينات لم يستمر الا سنوات تحالفت فيها على الوحدة ظروف خارجية استفادت من ظروف داخلية بل واستثارتها.

وقبل مد الخمسينات كان لدينا مد آخر في ثلاثينات القرن الماضي . ومن لندن صدر صك اعدام ذلك المد على النحو المعروف الذي تجسده وثائق دبلوماسية عديدة ، احراها بالتامل تلك الكلمات القليلة التي خطها بالمرستون الى بونسوبي ، مندوبه في استامبول يامره فيها اخبار السلطان العثماني ان الشعب اليهودي اذا عاد الى فلسطين بموافقة السلطان وحمايته وبناء على دعوته فسيكون هـذا الشعب اليهودي حاجزا ضد اية مخططات شريرة لمحمد علي او خليفته(٧).

---

(٧) نص الرسالة في كتابنا (بالانجليزية) : الاستعمار الاستيطاني في افريقيا الجنوبية وفي الشرق الاوسط الصادر ضمن سلسلة كتب فلسطينية رقم ٣٠ عن جامعة الخرطوم ومركز الابحاث الفلسطينية ، الخرطوم وبيروت ، ١٩٧٠ .

وبالطبع نعلم ان بالمرستون كان واعيا جدا لمغزى مجيء اليهود الى فلسطين ، ولم يكن امر رسالته الى ممثله امرا عابرا : ذلك انه منذ عام ١٨٣٣ — كما نعرف الآن — اعرب عن مخاوفه من قيام محمد علي بانشاء مملكة تضم المتكلمين بالعربية .

والآن في منتصف ثمانينات القرن العشرين نرى التشكل الجغرافي — السياسي الذي حلم به بالمرستون قبل قرن ونصف ، نراه واقعا مهيمنا كاقوى ما تكون الواقعية والهيمنة .

وما وقف الامر عند هذا الحد . ذلك ان اولئك الذين شعروا بانفسهم من منطلق تكلمهم العربية ، مادة موحدة لمملكة عربية اخذوا يبعثرون ممالك ودولا ومشيخات ، بل ويبعثرون لهجات وقوميات ، حتى انتهى شأننا الى المادة السادسة من معاهدة السادات — بيغن التي تجعل التزام مصر مع كتلة المستوطنين متقدما على التزام مصر مع اية دولة عربية أو أجنبية . ويعرف كل متابع لتاريخ هذه المادة في المعاهدة مدى عمق اصرار اسرائيل عليها ، ويعرف كل متابع للتاريخ السياسي والعسكري لمنطقتنا أن هذه المادة خضعت لامتحان الدم ، ونجح نظام مصر في الحفاظ على التزامه مع اسرائيل رغم عدوانها على لبنان ومنظمة التحرير في العملية التي اطلق عليها المستوطنون اسم « عملية سلامة الجليل » .

بحث الهويـة ، اذن ، مرتبط ارتباطا عضويا بمناهضة الكتلة الاستيطانية ، فيما اذا كنا مستقرين على أن هويتنا الاساسية هي اننا عرب .

---

(٨) نص الفقرتين / ٤ / و / ٥ / من المادة السادسة هو كما يلي :
٤ — يتعهد الطرفان بعدم الدخول في أي التزام يتعارض مع هذه المعاهدة .
٥ — مع مراعاة المادة / ١٠٢ / من ميثاق الامم المتحدة ، يقر الطرفان بانه في حالة وجود تناقض بين التزامات الأطراف بموجب هذه المعاهدة ، وأي من التزاماتهما الاخرى ، « بان الالتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة هي التي تكون ملزمة ونافذة » .

فاذا لم نكن متفقين على ان هويتنا الاساسية اننا عرب بل هي هويات قطرية مصرية وسورية وفلسطينية وغيرها ، فمعنى ذلك انتفاء ارتباط الكتلة الاستيطانية بالهويات القطرية ارتباط « اعدام » متبادل ، وصيرورتها مرتبطة ارتباطا حياديا ، (فلنقل : ارتباط تجاور جغرافي عادي) ، بل وربما ايضا ارتباطا تكامليا ، بالهويات القطرية . ولا ريب اننا نذكر جميعا ان هذه هي الفلسفة الاساسية لكامب ــ ديفيد والمعاهدة المنفذة لها . ضمن هذا النظام من الافكار تصبح جامعة الدول العربية من حيث هي جامعة للعرب ضد الصهيونية شيئا من الماضي ، ويصبح مطلوبا اقامة جامعة للدول العربية ينص ميثاقها على السلم مع اسرائيل ، بالنحو الذي قاله احد المسؤولين المصريين ، وهو الدكتور بطرس بطرس غالي ، وزير الدولة المصري للشؤون الخارجية ، في مقابلة مع مجلة آخر ساعة الاسبوعية المصرية بتاريخ ١٦ / ٥ / ١٩٨٤ .

وضمن هذا النظام من الافكار ايضا لا يعود ثمة قضية عربية بمواجهة اسرائيل ، بل يصبح الموضوع قضية فلسطينية محضة بمواجهة اسرائيل ــ وهي قضية من المحتمل انها خاسرة ، اذ لا امل لها بنصر عسكري ، ولا بتوازن استراتيجي ، بل جل ما تستطيعه الاستجداء . هذا لا يعني بالطبع اننا نقول القول المناقض وهو ان القضية العربية ، ككل ، ليست خاسرة بمواجهة اسرائيل . فالحق ان اساطين تبريري الفلسفة الساداتية (ان سميناها فلسفة) انما يبدأون تبريراتهم من مقدمة ان القضية العربية برهنت نفسها خاسرة خلال اربعين عاما من عمر الصراع العربي ــ الصهيوني ، لذلك كان لا بد من اللجوء الى تجزئة القضية طمعا في .... الربح !

نحن اذن ، لا نقول بأن القضية العربية كهوية واحدة اصيلة ضد هوية دخيلة ليست بالضرورة خاسرة ، ولكن من الواضح ان احتمال خسارتها هو دائما اقل من خسارة القضية الفلسطينية بمواجهة

اسرائيل . ففي التمسك بهوية عربية واحدة امل يرتجى في مناهضة الكتلة الاستيطانية . وفي الحس العام كما في التحليل العلمي ثمة ثابت اساسي هو ان ادارة عملية الصراع العربي ضد الصهيونية ، ان تمت بمقدرة وعلم ، فهي كفيلة بتحجيم اسرائيل كخطوة اولى تمهيدا لخطوات تالية .

مما سبق تبيانه اذن ، من ان القول بهوية عربية ، مرتبط ارتباطا عضويا بمناهضة الكتلة الاستيطانية ، يكون لدينا من منطلق بحث الهوية اتجاهان : اتجاه ايجابي يرى في الوحدة العربية هدفا ، واتجاه سلبي يرى في مناهضة الكتلة الاستيطانية سبيلا للوصول الى الهدف .

ولا اتردد مطلقا في القول ان العلم العربي للسياسة اساسه علمان : علم الوحدة العربية وعلم الاستعمار الاستيطاني ، وهما مترابطان فعلا في الساحة العربية .

ولأن السياسة ، تعريفا ، هي ما هو كبير ، فلن اتردد مطلقا في القول ان العلم العربي للسياسة الذي اقترحه انما هو على اتم الانسجام مع التعريف الذي وضعناه للسياسة ، فليس ثمة في الساحة العربية اكبر من هاتين المسألتين : مسألة الوحدة العربية ومسألة الاستعمار الاستيطاني .

رابعا ـ ملاحظات ختامية :

كان ما سبق من صفحات أشبه باللمسات ، بل وباللمحات . ولا ريب ان الصقل مطلوب ان لم يكن لذاته ، فبحثا عن اقناعية ليس سهلا الوصول اليها في خضم التبعثر العربي ، وفي الخضم الخاص بنا من التبعثر ، وهو تبعثر العلوم الاجتماعية العربية ، وفي طليعتها علم السياسة .

اما الاساس الذي بنيت عليه الصفحات السابقة فصلد راسخ : لا بد من تقدم الدعوة القومية على ما عرفناه من تجزيئيات العلوم الاجتماعية الحديثة ، ولا بد من نشوء جيل من علماء المجتمع العربي ، وفي طليعتهم علماء السياسة ، يجعل من الهم القومي هما اول ، يعرف مجتمعه فيهتم بفهمه لاتثبيتا له ، بل تغييرا له .

ولا يخشين احد من الضيق القومي فيما دعونا اليه . فما من طريق الى الانسانية والعالمية الا من خلال المشخص اليومي . فاذا كان اختصاصي العلوم السياسية منا يبدا يومه بمتابعة آخر اخبار مفاوضات طابا وانسحابات اسرائيل ـ مكرهة ـ من الجنوب اللبناني ، ويرى لنفسه دورا ما في انارة الطريق امام طلابه ومجتمعه وحكومته ، ازاء ما يجري ، فمعنى ذلك أنه يطبق العلم العربي للسياسة . اما اذا كان لا يتابع ما ذكرت ، وان تابع فلا يرى لنفسه دورا ازاء ما يتابع ، فمعنى ذلك ان اختصاصينا هذا انما يهيم في واد غير ذي زرع ، يبحث عن عقد يوقعه مع مؤسسة دولارية ما ، ليأخذ مكافآت مقابل كتابة بحوث لا يقراها احد ، على نحو ما ذكرته مجلة الايكونوميست في مقالها بعنوان « غزاة الجيش الضائع » (العدد بتاريخ ٢٩ / ٩ / ١٩٨٤) .

وقديما قال النبي العربي : « اذا مات ابن آدم انقطع ذكره الا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وصدقة يجريها ، وعلم ينتفع به الناس » .

☆ ☆ ☆

العلم: جبهاته وحدوده

بقلم: فكتور وايسكوبف
ترجمة: عبدالكريم ناصيف

ما هو العلم ؟

منذ بدء الحضارة اثار العالم الذي يعيش فيه الانسان فضوله ، فقد كان يبحث باستمرار عن علل وجوده ووجود العالم ــ كيف جرى خلقه ، كيف تطور ، كيف نشات فيه الحياة والبشرية وكيف ستكون نهايته ذات يوم ، افكار الانسان الاولى هذه ظهرت كلها ضمن اطر اسطورية او دينية او فلسفية الا انها جميعا كانت ذات صفة مشتركة : فهي موجهة الى الظواهر ككل وتبتغي تعليل كل ما هو موجود . انها تميل الى تقديم الحقيقة المطلقة من خلال محاولتها تقديم اجوبة مباشرة على الاسئلة الاساسية للوجود : « لماذا كان العالم على النحو الذي وجدناه عليه ؟ ما هي الحياة ؟ ما هي بداية ونهاية الكون ؟ »

لكن قبل عدة مئات من السنين بات لحب الاستطلاع لدى الانسان دور مختلف : فقد بدأ الناس ، بدلا من البحث عن الحقيقة الكاملة ، يتفحصون ظواهر محددة منفصلة تماما . لم يعد السؤال الذي يسألونه « ما هي المادة ؟ » « وما هي الحياة ؟ » بل « ما هي خصائص المادة ؟ » و « كيف يجري الدم في الاوعية الدموية ؟ » لذلك لم يعد احد يسأل « كيف خلق العالم ؟ » بل « كيف تتحرك الكواكب في السماء ؟ » اي بعبارة اخرى ، بات الناس يتجنبون الاسئلة ذات الصفة الشمولية لصالح الاسئلة التي بدا أن من الايسر الحصول على اجوبة مباشرة لها . اجوبة لا لبس فيها ولا غموض .

بعدئذ حدثت المعجزة الكبرى . فقد حصل الانسان على مكافأة تحفظه وحذره ذاك ، حين بدأت الاجوبة المقدمة على الاسئلة المحددة تغدو اكثر واكثر شمولية . ذلك أن التخلي عن محاولة الاتصال المباشر بالحقيقة المطلقة والانعطاف نحو تنوع الخبرات ، اتاحا الفرصة للمناهج العلمية لان تغدو اكثر نفاذا وتطلقا ولاكتشافاتها ان تغدو اكثر اساسية . لقد أفضت دراسة الكواكب المتحركة الى الميكانيكا الفلكية والى تفهم شمولية قانون الجاذبية . كما أفضت دراسة التأثيرات الحرارية الى اكتشاف القوانين العامة للديناميكا الحرارية . في حين قادت دراسة التفافات عضلات الضفدع والخلايا الكالفانية لمعرفة قوانين الكهرباء التي تبين انها اساس بنية المادة . وهكذا ، من خلال هذا البحث في التفاصيل ، وجد الاطار العام لفهم عالم الطبيعة . وبالتالي ، فقد نشأ ما يشبه النظرة العلمية الى العالم في القرن العشرين كحصيلة لما توصل اليه العلم خلال القرون الخمسة الماضية .

تختلف نظرة العلوم الطبيعية الى العالم عن النظرة الفلسفية والاسطورية والدينية في جانبين هامين : الاول هو انها لا تتضمن مفاهيم ذات صلة مباشرة « بالروح الانسانية » كالايمان مثلا ، خشية الله

والمقدسات ، التوحد ، السعادة ، الخير والشر وما شابه ، بل انها تتضمن هذه المفاهيم بصورة غير مباشرة . فهي تتجلى على شكل عمليات عصبية فيزيائية معينة في الدماغ .

الجانب الثاني هو ان ما يتوصل اليه العلم يكون ذا صفة « تجريبية » اي ينظر اليه باعتباره من المدركات غير المكتملة وعلى انه جزء من حقيقة اكبر ما تزال خافية في جملة الظواهر ، كما ان الآراء العلمية لا تكون مرتكزة على مبادىء دوغمائية او تتكشف لنا عن طريق الوحي الالهي او بعض الاشراقات الداخلية للعرفان الكامل . فما ندركه « كحقيقة علمية » يتكشف لنا خطوة خطوة وجزءا جزءا . هذه الاجزاء تكون كبيرة احيانا وصغيرة أحيانا اخرى كما قد تكون خطوات الكشف باتجاه الوراء في بعض الاحيان كذلك قد يتبين أن بعض المعارف التي تم التوصل اليها حديثا غير صحيحة . في الماضي كان من النادر أن تظهر معتقدات الناس على أنها خاطئة كلية ، غير أن بعضها أصبح ولسوف يصبح محدودا للغاية . او غير شامل الى حد كاف . او موضع خطا في الفهم . او ذا صيغة غير مقبولة كما سوف يظهر البعض الآخر بعيدا لا صلة له بالاكتشافات المستقبلية الأعمق .

مراحل تطور النظرة العلمية الى العالم :

فيما يلي وصف انتقائي « مفتوح » للنظرة العلمية للعالم في الوقت الحاضر ، ويمكننا أن نميز عشر مراحل أو خطوات :

١ ــ توحيد الميكانيكا السماوية والأرضية .

٢ ــ وجود النوع الذري .

٣ ــ الحرارة كحركة ذرية عشوائية .

٤ ــ الكهرباء والمغناطيس والبصريات ذات اصل مشترك : الحقل الكهرطيسي .

٥ ــ تطور الأنواع الحية .

٦ ــ النسبية .

٧ ــ نظرية الكم .

٨ ــ بيولوجيا الجزيء .

٩ ــ سلم الكم .

١٠ ــ الكــون .

لقد انهت الخطوة الاولى الاعتقاد السابق الواسع الانتشار والقائل بأن هناك قوانين ناظمة للسموات غير قوانين الارض . الخطوة الثانيــة التي اتخذت في نهاية القرن الثامن عشر ادت الى معرفة ان ذلك التنوع الشديد للمادة بأشكالها المختلفة انما هو حصيلة اتحاد اثنين وتسعين عنصرا فقط من انواع الذرات المختلفة . الخطوة الثالثة هي واحدة من امثلة قليلة في تاريخ الفيزياء التي تبين فيها ان احد المفاهيم الهامة خاطىء خطأ أساسيا ، ذلك المفهوم هو ان الحرارة شيء يختلف عن المادة العادية وهو ما كان يدعى باللاهوب او « الفلوجستون » . الخطوة الرابعة هي أحد الانتصارات العظيمة التي حققتها الفيزياء في القرن التاسع عشر حين تبين أن هناك ظواهر متباينة في الظاهر كالكهرباء مثلا والمغناطيس والضوء ليست هي بالحقيقة الا مظاهر للعنصر نفســه . الخطوة الخامسة هي نظرية داروين في التطور التي فسرت كيف تقع احداث غائية هادفــة في عالم تسوده قوانين مجردة من الهدف والغاية .

هنا نصل الى اكتشافات القرن العشرين . فنظريــات اينشتاين حول النسبية تتضمن وحدة الزمان والمكان ، الكتلة والطاقة ، العطالة والجاذبية ، وخير مصطلح يمكن اطلاقــه على افكاره هــو مصطلــح « النظرية المطلقة » نظرا لانها تتيح لنا أن نصوغ قوانين الطبيعة بمعزل عن أي نظام مرجعي ، اي بالمعنى المطلق .

الخطوة السابعة هي الخطوة الاشد ثورية على الاطلاق . فقد افضت ميكانيكا الكم الى معرفة ان هناك حدودا في عالم الذرة تحد من تطبيق المفاهيم « الكلاسيكية » كمفهوم الموقع ، الطاقة ، السرعة ، القوة الدافعة . هذه الحدود صاغها ونسقها مبدأ هايزنبرغ الشهير ، مبدأ الريبة . هذا المبدأ يعمل كمرشد يدل على المدى الذي يمكن ضمنه تطبيق المفاهيم الكلاسيكية . اما ماوراء هذه الحدود فاننا نواجه « حالات كم » محددة لايمكن لمنظومة المفاهيم الكلاسيكية ان تصفها . مع ذلك فان حالات الكم هي الاساس الذي يقوم عليه فهمنا لخاصية المنظومات الذرية وبصورة خاصة ، لاستقرارها ونوعيتها التي تعتبر سمات غالبة لبيئتنا . انها تفسر لماذا تحافظ الذرات والجزئيات على هويتها واشكالها وانماطها رغم التصادمات والاضطرابات التي تصيبها ، لماذا الذهب هو الذهب حيثما نجده ، وكمثال اخير ، لماذا تتفتح الازهار عينها كل ربيع . من هنا ينبغي ان يدعى مبدأ هايزنبرغ « بمبدأ اليقين » لامبدأ الريبة نظرا لانه يتيح لحالات الكم الذرية امكانية توضيح خصائص معينة محددة تماما . فهذا الاسم ، جنبا الى جنبا مع النظرية المطلقة، يمكن ان يحول دون الكثير من اساءات الاستخدام الفلسفية .

الخطوة الثامنة ، اي بيولوجيا الجزيء ، كشفت لنا عن العمليات التي تجري في الجزيء ، تلك العمليات المسؤولة عن نمو وتكاثر الانواع الحية . هذا الميدان مايزال قيد التوسع الهائل في الوقت الحاضر . الفكرة الاساس هنا هي معرفة الجزيء الاكبر لد د . ن . اي (الحمض الريبي النووي منقوص الاكسجين) الذي يحتوي على مجموعة القوانين او الشيفرة الخاصة بانتاج البروتينات وهي المادة التي تحافظ على سيرورة الحياة ، غير اننا مانزال بعيدين عن ان ندرك ادراكا كاملا طريقة عمل وتطور الكائنات الحية رغم ان هذه الافكار قيد التوسع المطرد ، ففي كل شهر تقريبا نسمع عن اكتشاف جديد في ميدان الكيمياء الحيوية .

النقطة التاسعة ، اي سلم الكم . تتناول تراتب المنظومات المادية المكتشفة منذ عام ١٩٣٠ ذاك الراتب الذي ينبثق من التسلسل النموذجي لميكانيكا الكم أي : العلاقة بين الطاقة والحجم . انها تقول بطريقة مبسطة نوعا ما : بقدر ما يصغر الجسم ترتفع طاقة المبدى او العتبة النووية threshold energy من حالة الكم الادنى الى الحالة الاعلى التالية وترتفع الطاقة اللازمة لتحريك الجسم . مثال على ذلك . اذا شئنا ان نغير حالة الكم الداخلية لنواة ذرة ، فان علينا ان نستخدم طاقات اعلى بكثير من الطاقات اللازمة لتغيير حالات الذرة . لكن لم يحدث الا بعد اختراع السيكلو ترون ومسرعات الجزيئات الاخرى التي يمكنها ان تطلق ملايين الفولطات الالكترونية . ان صار بالامكان وضع العمليات النووية قيد العمل . فقد تم اكتشاف عالم جديد من الظواهر : التحولات النووية النشاط الاشعاعي ، الانشطار ، الالتحام وغيره وغيره . ذلك العالم يبقى خامدا في المحيط الذي لايوفر له الطاقات المطلوبة ، والارض مثال على محيط كهذا : اللهم الا اذا استطاع الانسان تجاوز هذه القيود .

غير ان هذا العالم ينشط في مركز النجوم حيث درجة الحرارة عالية الى حد يكفي لتجاوز العتبة النووية ومباشرة التفاعلات النووية . وهذه هي التفاعلات التي توفر الطاقة المطلوبة لاستمرار تالق النجوم . اذن ، قوة جديدة للطبيعة تكشفت لنا ، انها القوة النووية : العنصر الذي يبقي النيوترونات والبروتونات معا داخل النواة .

لكن حين اقيمت مسرعات أكبر من تلك ، مسرعات توفر بلايين الفولطات الالكترونية فقد اكتشف عالم آخر من الظواهر : الدرجة الاعلى التالية في سلم الكم . لقد تبين أن البروتون والنيوترون هما الآخران جسمان مركبان ، والعناصر التي يتركبان منها أشبه بكواركات(١) يجمعها معا نمط جديد من انماط القوة ذو اسم غير موح هو « القوة

١ ـ مفردها كوارك وسوف يرد تفسيرها فيما بعد .

المركزة أوالمكثفة» والحقيقة أنه قدتبين أنالقوة النوويةالتيذكرناها آنفا والتي تجمع مابين النيوترونات والبروتونات ماهي الا اثر ضعيف مـن آثـار « القوة المركزة » هذه تماما مثلما تبين أن القوى الكيماويـة التي تبقي الذرات معا في الجزيئات والمواد الصلبة هي اثر ضعيف مـن آثار القوة الكهربائية التي تشد الالكترونات بعضها للبعض الآخر داخـل الذرات .

تتضمن مظاهر الدينامكا الداخلية للبروتونات والنيوترونات وجود الكثير مـن حالات الكم المضطربة للبروتون والنيوترون ؛ كمـا تتضمن اشكالا جديدة للنشاط الاشعاعي ، انماطا جديدة للجسيمات ذات العمر القصير (أي مايدعى بالدقائق أو الميزونات) وانتاجا وفيرا وتدميرا للمادة المضادة التي هي شكل آخر من اشكال المادة يتكون من جسيماتجنبا الى جنب مع المادة ذاتها حين تتوفر الطاقة الكافية لـذلك ؛ فحسب نظرية اينشتاين ؛ تكون الطاقة تتضمنها الكتلة هي م س حيث س هي سرعة الضوء . وعلى العكس ، حين تتصادم المادة والمادة المضادة فانهما كلتيهما تتحولان الى شكل آخر مـن اشكال الطاقة ، كالاشـعاع مثلا .

نادرا ماتكون الطاقات اللازمة لتحريض ظواهر ذلك العالم الرفيع متوفرة في الكون . وهذا مايفسر خمودها حتى في باطن النجوم العادية. لكن من المرجح انها تلعب دورا في بعض النجوم الحارة على نحو غير عادي ولعلها لعبت ذلك الدور ابان المراحل الاولى من فترة النشاط الكبير .

بيد اننا نجهل ماءاذا كانت هذه هي الدرجة الاخيرة في سلم الكم ام أن هناك درجات أعلى . فالكواركات التي نعرف الآن خمسة انماط مختلفة منها قد تكون اجساماً مركبة ذات عتبات اعلى أيضا . وقـد

يكون هناك دينامية داخلية ضمن الالكترون تعجز عن تحريكها الطاقات المتاحة حاليا .

هنا نتوصل الى المرحلة الاخيرة في وصفنا للنظرة العلمية للعالم اي الكون . فخلال هذا القرن ، عمل عدد من الاكتشافات على توسيع مداركنا عن طبيعة الكون ككل ، أحدها هو اكتشاف التمدد المطرد للعالم بصورة عامة ، وهي الحقيقة التي تفضي بالمرء لان يستنتج انه كانت ثمة بداية عندما كانت المادة حارة حرارة بالغة ومضغوطة ضغطا شديدا ولعل اروع اكتشاف على الاطلاق هو ملاحظة اشعاع ضعيف يملأه على ما يبدو ، الفضاء كله ، مع كل الخصائص المتوقعة من انعكاس بصري لهذه البداية الاولى التي ماتزال تتردد عبر الفضاء .

فهناك مايزال سوء فهم واسع الانتشار لحركة النشاط الاولى : فهي لم تكن ظاهرة ذات صفة محلية بدأت في نقطة معينة في الفضاء ثم امتدت الى بقية الكون بل ان حالة التركيز الشديد والحرارة البالغة كانت موجودة في كل انحاء الفضاء وفي كل المواقع . والتمدد الذي تلا ذلك ينبغي النظر اليه بوصفه تخفيف تركيز او تخفيف انضغاط في كل نقطة من نقاط الكون .

الاكتشافات الاخرى التي جرت في اعماق الكون كشفت هي الاخرى عن نجوم او تشكلات نجمية ذات قوام خاص للغاية . اذ تبدو « النجوم النيوترونية » وكأنها تتكون من مادة هي اكثف بملايين ملايين المرات من المادة المألوفة لدينا ، كما تبدو « أشباه النجوم » وكأنها مجرات تشع طاقة اشد ببليون مرة من طاقات المجرات العادية . كذلك تبدو « الثقوب السوداء » اشبه بتجمعات بالغة الكثافة لمادة يتقوس حولها الفضاء الى درجة لا يمكن معها للمادة والضوء ان يخرجا بل أن يدخلا فقط . وعلى الرغم من الخصائص الغريبة لهذه الاجرام .

فـان من المحتمل أنها ماتزال ظواهر يمكن فهمها انطلاقـا من معرفتنا الراهنة بخصائص المادة والفضاء .

ينبغي النظر الى اكتشاف الانعكـاس البصري لحركـة النشاط الاولى على انـه اثبات خارق العادة للفرضية القائلة ان العالم بدا منـذ اكثر من عشرة بلايين سـنة . ولعلها كانت « بداية جديدة » نظرا لاننا، بما نمتلك من معارف راهنة ، لا نستطيع نفي الحقيقة القائلة ان التمـدد الملحوظ قد يتبعه تقلص لاحق ينتهي الى تكثيف للماد ةشديد الحرارة يكون فيما بعد بداية لتمدد جديد بحيث تتكرر العملية الى مالا نهاية . ان التوصل الى معرفـة بداية من هذا النوع هو تتويج لتطور ادخل الى العلوم الطبيعية جانبها التاريخي . ذلك ان هذه العلوم ، اذا ماأستثنينا علم الجيولوجيا ، ظلت فترة طويلة من الزمن علوما لاتاريخية ، اذ كانت تتم دراسة المادة في وضعها الراهن دون التطرق لتاريخها . اما اليوم فان تاريخ المـادة يعد احـد جوانبها الهامة .

ترتبط أفكارنا الراهنة عن ذلك التاريخ ارتباطا وثيقا بتراتـب المنظومات المـاديـة التي تمثل درجات سلم الكم . فهذا السلم يمتد من ذرات المادة العادية الى الجزيئات فالذرات ومن ثم الى النوى فالى العناصر المكونة للنوى واخيرا ـ كما نرى اليوم ـ الى الكواركات . لقـد سار تطور الكون في الاتجاه المعاكس اي نزولا مع سلم الكم ، اذا جـاز التعبير ، اذ تمت عملية الانتقال من العنصر الاولي الى المركب ، مـن الاقل تعقيدا الى الاكثر تعقيدا .

ففي الماضي السحيق ، حدثت حركة النشاط الاولى التـي احدثت لدقائق المادة الاولية حالة شديدة الحرارة عالية التركيز والطاقـة ، فتشكلت الكواركات والالكترونات . فيما بعد، اي اثناء التمدد والتبرد ، اتحدت الكواركات على شكل بروتونات ونيوترونات . هذه الاخيرة اتحدت

مع الالكترونات على شكل ذرات من الهدروجـين والهليوم ، ثم أدى اتحاد قوى الجاذبية لدى هذه الذرات الى تشكل النجوم والمجرات ، اما في مركز النجوم فقد نشأت ذرات الهدروجين والهليوم . وقـد أحاطت ببعض النجوم كواكب تشكلت فيها صخور ومعادن ومادة مكثفة من مختلف الانواع ، كما ان بعض الجزيئات . وبتأثير نجـم قريـب كالشمس تأثيرا غير خطر ، اتحدت فشكلت جزيئات كبرى قادرة على التكاثر . الامر الذي ادى الى ظهور الخلايا فالاجناس ذات الخلايـا الكثيرة واخيرا الكائنات ذات الحواس ثم الكائنات الواعية .

لكن ماتزال مراحل كثيرة في هذا التسلسل التاريخي مغلفة بغلاف الجهل والتخمين مثال على ذلك ، النشوء الاول للكواركات والالكترونات عقب حركة النشاط الاولى ، او المراحل التفصيلية لتطور الحياة على كوكبنا . هذا التاريخ التطوري العالم ، بدءا من حركة النشاط الاولى وحتى الكون الحالي انما هو سلسلة من المراحل المتدرجة من البـسيط الى المعقد من الفوضى الى التنظيم . من هيولى الدقائق الاولية الحارة عديمة الشكل الى الذرات والجزيئات ذات البنى الابرد ومن ثم الـى السوائل والاجسام الصلبة الاكثر تنوعـا في البنى واخيرا الى الكائنـات الحية الراقية والقادرة على التكاثر الذاتي .

هذا التطور لايتعارض البتة مع القانون الثاني للديناميكا الحرارية التيتشترط تناقصا مستمرا فيالمرتبة ، ذلك ان تزايدالمرتبةوتكاثفالبنية في بعض النقاط المحدودة في الكون عوضه وناف في تعويضه الدفـق المستمر للطاقـة الاشعاعية الى الخواء خلال عملية التبرد . ان تبدد ذلك الاشعاع في اعماق الفضاء يمثل مـن الفوضى ، حسب منطوق القانون الثاني ، اكثر بكثير مما يمثل من النظام الراسخ . حيث كانت المادة تتجمع وتشكل بنى منتظمة ذات اشكال خاصة سواء منهـا ماكان جامدا ام حيا .

جبهتان للعلم

تتطور العلوم الطبيعية على جبهتين اثنتين ، يمكن ان ندعو اولاهما باسم الجبهة الداخلية حيث تجري دراسة نتائج التفاعلات الكيماوية التي نعرف طبيعتها بصورة مبدئية : اي التفاعل الكهربائي بين نوى الذرات والالكترونات والذي تنظمه ميكانيكا الكم . غير ان النتائج متعددة الاوجه ومعقدة الى حد كانت معه دراستها ومازال موضوع جبهة البحث المتسعة النطاق مذ عرف الانسان التفاعلات .

والحقيقة ان ثمة اسبابا وجيهة لتعقيد عالم الذرة . فبنية الذرة تسمح بعدد هائل من الاتحادات بين الذرات ثم اتحادها من جديد وذلك من خلال تشكيل عدد كبير من البنى النوعية وما فوق البنى النوعية . هذه القدرة على الاتحاد بين الذرات تقوم بالاساس على الانماط الخاصة بحالات كم الالكترون وهي المسؤولة عن ذلك العدد الذي لايحصى من الاتحادات التي تقوم بين وحدات الذرات .

تتفاوت الاشكال التي تتجلى فيها الاتحادات الذرية مابين الخصائص المعروفة جيدا للبلورات والمعادن والسوائل والغازات ، وبين الظواهر الجديدة التي لا تظهر الا في ظروف خاصة ووفق شروط خاصة كالناقلية الشديدة للمعادن مثلا والتميع الشديد للسوائل في درجات الحرارة المنخفضة كثيرا ، او ظواهر الحالة الخاصة من تجمعات المواد المعروفة باسم « البلازما » والتي تحدث في درجات الحرارة المرتفعة كثيرا او درجات الضغط المنخفضة كثيرا . والى هذا النوع تمت ايضا فيزياء الاغشية السطحية . في هذه الجبهة يكشف العلماء المزيد والمزيد من الظواهر وخصائص المواد ويفسرونها ويفيدون منها ؛ وهي تضم القسم الاكبر من الفيزياء والكيمياء الحديثتين .

في الوقت الحاضر ، ينبغي ان نضع قسما كبيرا ايضا من علم البيولوجيا ضمن هذه الزمرة ؛ ولاسيما بيولوجيا الجزيء ؛ ذلك ان

استقرار الـ د. ن إ (الحمض الريبي النووي منقوص الاكسجين) يتوقف الى حد كبير على حالات الكم للعناصر التي يتكون منها . وهكذا فـان آليات الوراثة ونمو البنى الحية وتطور مختلف الاجناس ، كلها مـن حيث المبدأ ، تخضع للقوانين ذاتها التي تنظم العلاقات القائمة بـين الذرات والجزيئات .

ان جميع الظواهر الناشئة عن تفاعل الذرات ترتكز بالاساس على ميكانيكا الكم لحركات الالكترونات طبقا لتأثير القوى الكهربائية . وليس ثمة داع لان نرتاب في ذلك . فهذا تبيان مبدأ ليس الا . ولكي نتعامل مع ذلك الحشد الهائل من هذه الظواهر ، لابد من ادخال مفاهيم خاصة في كل مرحلة ، كدرجة الحرارة مثلا ، الانتروبيا (١) ، الرابطـة الكيماوية، اللزوجـة ، الهلامية ، واشياء كثيرة اخرى ، وحين نقترب من عالم الاحياء خاصة فان طرق واساليب الوصف تكون بعيدة كثيرا عن الطرق والاساليب التي بينتها المبادىء الرئيسية اي حين نتكلم عـن المورثات (الجينات ، البروتينات ، الحماض (الانزيمات) ، الهرمونـات وهلـم جرا . وعندما نصل الى دراسات الدماغ واعماله فـان المفاهيـم والمصطلحات تغدو [illegible] عن البنى الاساسية لحـالات الكـم الالكترونية .

لكن مايزال ثمة الكثير مما ينبغي تعلمه كي نحصل على رؤية عميقة وتبصر نافذ في الظواهر المعقدة المتشابكة لعالم الذرات ، الجزيئات ، السوائل ، الاجسـام الصلبة ، البلازمات ـ السلاسـل الجزيئية والكائنات الحية . فنحن نواجه مشكلات العلاقات بين تجمعات مختلفة من الذرات أو الجزيئات المنظمة وغير المنظمة ، ومشكلات الصيغ الانتقالية من بنية اخرى . ان الفهم الحقيقي يعني ضمنا التمييز بين ما هو جوهري ومـا هو هامشي . وحين نتوصل الى فهم كهذا اي حين نتمكن من الفصل بين ما هو هام وما هو غير هام ـ حينها فقط لن تعود الظواهر معقدة بـل ستغدو واضحة شفافة لكل ذي عين .

(١) الانتروبيا : عامل رياضي يعتبر مقياسا للطاقة غير المستفادة في نظام ديناميي حراري .

الآن نصل الى الجبهة الثانية للعلوم الطبيعية تلـك التي يمكننا أن ندعوها باسم الجبهة الخارجية . هـذه الجبهة تتعامل مـع الدرجات العليا من سلم الكم وتتناول استكشافات تلك العوالم من الطبيعة التـي تقع فيما وراء المبادىء المدركة في الوقت الراهن . اننا نعلم بالتأكيد أن عالم الذرة يقوم اساسا على قوى الجذب الكهربائية المعروفة جيدا والقائمة مابين الالكترونات ونوى الذرات ، بيد ان القوى الفاعلة مابين البروتونات والنيوترونات ، القوى الفاعلة بين الكواركات والقوى التي تنظم الانبعاث الاشعاعي ليست معروفةبصورة مقنعةبعد .وهذه هي جبهةنضالالفيزياء النووية، جبهة فيزياءالدقائق، جبهةبعضالمناحي منعلمالفلكوعلم الكونيات . اننا في هذه الميادين كافة نتعامل مع ظواهر غير ارضية تحرضها تبادلات للطاقات اكبر بكثير من تلك التي تجري على الارض . ولابد من توفـر معجزات المهارة التقنية لمعرفة تلك الشروط مافوق الارضية الموجودة على الارض او رصد تلك الظواهر في الكون باستخدام الاعين اللاسلكية واعين الاشعة السينية واعضاء حس بشرية اخرى ذات امتداد هائل . ان عالما جديدا كاملا من الظواهر غير المتوقعة يكتشف الآن بصغيره وكبيره ــ في المظاهر التي تتجلى فيها ديناميكية كل تركيبات الكواركات ذات العمـر القصير تلك وكذلك في الامداء البعيدة للكون مابعد المجراتي .

ليست الاكتشافات التي تتم في الجبهة الخارجية ذات اهمية بالغـة لانها تكشف لنا عن طرق جديدة كل الجدة لسلوك الطبيعة وحسب ، بل لانها قد تقود أيضا الى تحقيق فهم اعمق لعالمنا الارضي نفسـه . مثال على ذلك ، نحن لا نملك اية فكرة بعـد عن السبب الذي يجعـل الشحنة الكهربائية للالكترون ذات قيمة محددة معاكسة تماما لشحنة البروتـون علما أن هذه القيمة هي عامل حاسم من عوامل التحكم بسلوك العالـم الذري . ولو كانت أكبر أو أصغر مما هي عليه فربما كان عالمنا سيبدو مغايرا تماما ، ويسلك سلوكا مغايرا أيضا . علاوة على ذلك ؛ فاننا نجهل

كل الجهل ما يتعلق بالاسباب التي تجعل كتلة الالكترون اصغر بحوالي الفي مرة من كتلة البروتون والنيوترون . الامر الذي يجعل النوى الذرية اثقل بكثير من الالكترونات ، اذ بقدر ما تكون الكتلة اخف تكـون حالات الكم اكثر انتشارا . ينتج عن هذا أن النوى الذرية تشغل مراكز محددة جيدا داخل الجزيئات في حين تكون حالات كم الالكترونات منتشرة في كل انحاء الفراغات القائمة فيما بينها . لهذا السبب تشكل النوى نوعا مـن الهيكل العظمي داخل الجزيئات ، الامر الذي يؤدي الى ظهور ما يمكن ان ندعوه باسم « البناء الجزيئي » . انه يمثل الترتيبات المكانية النموذجية للذرات ضمن الجزيئات وهو الاساس الذي يقوم عليه كثير مما يجري في محيطنا . اقرب مثال على ذلك هو البنية اللولبية لجزيء الـ د. ن. ا ــ ملف الحياة . والاسباب الاعمق لوجود تلك النسبة الحاسمة للكتلة قد تكتشف يوما من الايام في الجبهة الخارجية لفيزياء الدقائق اما اليوم فانها ماتزال مجهولة .

هناك مسألة هامة ايضا ينبغي حلها من خلال الدراسات الاعمق للدقائق او الجسيمات « الاولية » الا وهي العلاقة بين قوى الطبيعة الاساسية . فنحن في الوقت الحاضر نميز اربعا منها : القوى الكهرطيسية القائمة بين الدقائق المشحونة كيربائيا . القوى « المكثفة » القائمة بـين الكواركات . مـا يدعى بالقوى الضعيفة المسؤولة عـن ظواهر النشـاط الاشعاعي واخيرا قوة الجاذبية . لكن ثمة دلائل قوية تدل على أن القوى الكهرطيسية والضعيفة وربما ايضا القوى المكثفة ترتبط ارتباطا وثيقـا بعضها بالبعض الآخر .

الحدود الداخلية للعلوم ــ قدرة الطبيعة الابداعية :

هل هناك حدود لقدرة الكشف العلمي ؟ هـل هناك ايـة ظواهر او تجارب لا يمكن ابدا الوصول الى تفسيرها او فهمها بطرق العلم ومناهجه؟ من الواضح أن كثيرا من الظواهر والعمليات التي تجرى في الطبيعة داخل العقل البشري وخارجه ماتزال ابعد من ان يدركها العلم المعاصر . مع ذلك

يبقى السؤال قائما : هل هناك حدود للتفسير العلمي لن يكون بمستطاعه تجاوزها ؟

« ان نتكهن بالجواب مسألة صعبة خصوصا حين تكون هذه التكهنات متعلقة بالمستقبل » ، كما قال احد الظرفاء الدنماركيين . مع ذلك قد يناقش البعض بأن مثل هذه الحدود موجودة فعلا . فهناك نوعان من الحدود مختلفان نوعا ما : حدود داخلية وحدود خارجية ، وهذه المصطلحات تشير الى علاقة الحدود بالنظام المفاهيمي للعلوم .

ثمة اهداف ثلاثة للعلوم : الفهم ، التفسير ، التكهن . فالفهم يدل على وجود فكرة عامة عن الكيفية التي تحدث بها الظاهرة ، ما هي اسبابها وكيف ترتبط بالنواحي الاخرى من عالم الطبيعة . انه يتضمن ازالة الغموض عن تلك الناحية من عالم الطبيعة التي تمت اليها الظاهرة . اما التفسير فيمضي ابعد من ذلك . انه يقول لنا لماذا تحدث الظاهرة او العملية قيد البحث بتلك الطريقة وليس بسواها . في حين نجد ان التكهن يكون اكثر تحديدا حتى : اذ يُنبئنا بما سيحدث في المستقبل لجسم معروف جيدا حين تتحقق شروط معينة . كذلك هناك ما يشبه كثيرا التكهن بالماضي او « التكهن الارتجاعي » وذلك حين يتم استخلاص النتائج فيما يتعلق بتاريخ سابق غير مكتشف بعد ، لجملة معينة من الاشياء .

تنطبق الحدود الداخلية للعلم على امكانات التفسير والتكهن فقط . لكنها لا تنطبق على الفهم فهي لاتحد منه ومن الممكن ايجاز الاسباب الخاصة بهذه التحديدات بمصطلح « ظواهر التضخم » الذي يدل ضمنا على ان الاسباب البالغة الصغر قد تكون احيانا ذات نتائج بالغة الضخامة . ولسوف نضرب مثالا بسيطا يدل على ما نعنيه . لنتأمل مصير جزيء واحد من جزيئات غاز في جوفا مثلا . هل يمكننا التكهن بمصيره في مسار الزمان ؟ الجواب بالنفي قطعا . فالتغيرات البالغة الصغر التي تطرأ على الشروط الاولية تتضخم تضخما سريعالدى كل تصادم يحدث مع الجزيئات

الاخرى . بل حتى لو عرفنا حاله الاولية بدقة بالغة ، فانه سيكون من المستحيل عمليا تحديد حالته النهائية علاوة على ذلك فان ميكانيكا الكم تحد من الدقة التي يمكننا بها معرفة الشروط والاحوال الاولية .

هذا الحد لا يبدو مزعجا فمن تراه يبالي بمصير جزيء من الجزيئات؟ انه غير هام بالنسبة الى الغاز . وكل ما يعنينا نحن انما هو ضغط الغاز، درجة حرراته ، تقلبات الكثافة وما شابه وهي جميعا مسائل لاصلة لمصير جزيء واحد بها .

وهناك امثلة مشابهة يمكن تبينها من تطور منظومات النجوم . فقوانين الجاذبية اقتضت تشكل مجموعات عنقودية ضمن الغاز الحارالاولي الذي كان الكون يتشكل منه بصورته الاولى . بعدئذ تزايدت تغيرات الكثافة الصغيرة وذلك بجذب جزيئات غاز مجاورة . ثم غدت التجمعات الاكبر اكثر قدرة حتى ، وبالتالي فانها جذبت المزيد من المادة . وبعملية التضخم هذه فان الغاز الذي كان موحدا بالاصل انفصل الى مجموعات تزايدت باستمرار ، هذه المجموعات تطورت في وقت لاحق الى مجرات وتجمعات ــ مجرات . ورغم ان من المستحيل التكهن بطبيعة تشكل المجموعات العنقودية بالضبط ، فان بامكان المرء ان يتكهن ان تشكل هذه المجموعات يعود ولابد لتضخم قوى الجاذبية الذي نتج عن تغيرات صغيرة في الكثافة . هنا ، الوضع اكثر اثارة تقريبا : فالطبيعة تخلق اشكالا جديدة لا يمكن ان تتكهن بها قوانين الفيزياء ، الا بصورة عامة للغاية . اننا قد نتمكن من فهم ظاهرة حدوث الاذرعة اللولبية وما شابه ، لكننا لن نفهم قط ذلك التنوع الهائل في التفاصيل الذي يثير اعجابنا حين نتامل صور المجرات وهي امثلة على قدرة الطبيعة الإبداعية .

يقول لنا علم الجيولوجيا امثلة كثيرة عن ظواهر التضخم ، من هذه الامثلة شكل السلاسل الجبلية . فنحن نستطيع أن نستوعب تشكل

سلاسل كهذه من خلال النشاطات التكتونية(١) لقشرة الارض ، لكن ليس باستطاعتنا ان نفسر لماذا اتخذت القمة البيضاء ، مثلا ، شكلها المحدد الذي نراه اليوم . كما لا يمكننا أن نتكهن اي جانب من جوانب جبل القديسة هيلين سيتجوف عند حدوث الثوران التالي وماهو الشكل الذي سيكون عليه بعد ذاك . غير أن شكل الجبل الناتج سيكون مثالا على قدرة الطبيعة الابداعية . كذلك ينبغي ان نضيف ان العلوم الجيولوجية تسمح بقدر كبير من التكهن الارتجاعي : اذ يمكن التحقق من صحة كثير من الفرضيات المتعلقة بالتطور الذي حدث على كوكبنا او اثبات زيفها وذلك من خلال البحث عن ادلة تتعلق بأحداث الماضي .

على ان الامور تغدو اكثر حسما واهمية حين نلقي نظرة على العمليات البيولوجية . ولكي نبرز الفارق . دعنا نتأمل تجربتين نجريهما بواسطة حزمة من الاشعة السينية . في التجربة الاولى ، نعرض للحزمة بلورة اما في الثانية فبكتيريا حية . الآثار التي تطرأ على البلورة يمكن التكهن بها بدقة تامة تقريبا ، نظرا لانه ليس من المهم اية ذرة من البلورة سيقع عليها فوتون(٢) الاشعة السينية . غير ان الآثار الواقعة على البكتيريا تتوقف توقفا حاسما على الفئة الذرية الخاصة بمورثات (جينات) الخلية التي يصطدم بها فوتون الاشعة السينية . هنا ، يكون الامر الجوهري هو المكان الذي يصطدم به الفوتون بالخلية وهو غير قابل للتكهن . بالطبع تكون معظم اصطدامات كهذه مؤذية او لاتحدث كثيرا من التغيير ، لكن بعضها قد يؤدي الى نمو سلالة لها قدرة اكبر على التكيف مع البيئة . ومن المعروف جيدا انه يتم الاحتفاظ بتغيرات كهذه وانها تحل محل البكتريا السابقة من خلال عمليات التطابق والاصطفاء الطبيعي ، فنجد أمامنا مرة ثانية حالة من حالات عمليات التضخم الهامة . وبصورة عامة

(١) التكتوني اي مايتعلق بتشوه اديم الارض والقوى المؤدية اليه والاشكال الناشئة عن ذلك .

(٢) الفوتون : وحدة الكم الضوئي .

فان التغيرات التي تطرأ على تكوين مورثات الخلية او الجنس الحي انما تجري لاسباب كثيرة اخرى غير الاشعة السينية لكن دائما على شكل عملية جزيئية غير قابلة للتكهن انما ذات نتائج يمكن رؤيتها بالعين المجردة. وهذه امثلة نموذجية عن آثار التضخم .

على ان تفسير المسالك الخاصة للنشوء والارتقاء يغدو اصعب واصعب نظرا لذلك العدد الهائل من التركيبات التي يمكن ان تصنعها النويات والتي تشكل التركيبة الوراثية في سلسلة جزيئات الـ د. ن. إ المعروفة جيدا . صحيح ان عدد التركيبات الصالحة تاقل بمقدار كبير الا انه يظل اكبر بكثير من عدد تلك التركيبات التي تتحقق في الطبيعة لذا يتعذر علينا أن نفسر لماذا تتحقق بعض التركيبات وبعضها الآخر لا يتحقق كما يستحيل علينا ان نتكهن بالتغيرات التطورية التي قد تقع في المستقبل . وهكذا نجد مرة ثانية ان تشكل جنس حي نعلي عمل من اعمال القدرة الابداعية للطبيعة لا يمكن التكهن به . اننا نفهم الاتجاه العام غير اننا نعجز عن تفسير الاحداث التفصيلية المحددة كذلك فان التطور الحيوي . تماما كما هو الشان في الجيولوجيا . يتبنى قدرا معينا من التكهن التراجعي . والواقع أن كثيرا من الادلة الاثباتية ترتكز على الاستنتاج الناجح لماتكشف عنه المستحاثات وكيفية تطور أنواع معينة من العمليات الكيميائيةالحيوية بفضل الاصطفاء الطبيعي .

لقد احرزت ظاهرة التضخم التطوري انطلاقا جديدا حين تطورت الجملة العصبية والدماغ . فقد شكل هذا الانعطاف طريقة جديدة للتواصل بين العالم الخارجي والكائن الحي . ورغم ان النمط ـ الظاهرة كان مايزال يتحكم بمصيره تضخم البنية المجهرية الـ د. ن. ا فان نمطه السلوكي ظل يتوقف ايضا على رد فعله تجاه الانطباعات الحسية . وما يمثل عملية تضخم ايضا انما هو العمليات المجهرية في اعضاء الحس التي تثير افعالا وردود افعال واسعة النطاق لدى الكائنات الحية . تمد

العلاقات المتبادلة بين الوارد الحسي والناتج السلوكي بالغة التعقيد وذلك بسبب تلك الظاهرة التي تدعى الذاكرة . فالذاكرة تسمح بحدوث عملية اخرى من « التعلم » ، وهي العملية التي تصبح فيها العلاقات بين الوارد والصادر أكثر وأكثر صقلا خلال حياة الفرد. هنا نظام التضخم اعلى مرتبة بحيث يغدو الامر اكثر صعوبة على التفسير العلمي او التكهن باحداث محددة . مع ذلك ؛ قد لا يكون هناك حد يقف عنده الفهم العلمي التعمق للعوامل النفسية والعصبية ذات العلاقة .

لقد ظهرت سمة جديدة مع تطور الجنس البشري الا وهي : تراكم المعرفة . ولقد ادى تراكم المعرفة الى تطور انماط جديدة من السلوك مغايرة تماما لما كان معروفا من قبل . ففي السابق ظل سلوك الجنس الحيواني بلا اي تغير جوهري على مدى اجيال كثيرة للغاية ، رغم تعلمه بعض الاشياء. ذلك ان موت الفرد من ذلك الجنس كان يمسح كل ما كتبه من خبرات في حين ان تغيرات سلوكه كانت تنجم بصورة رئيسية عن التغيرات الطارئة على البيئة الطبيعية او التغيرات الوراثية . بعدئذ بات تراكم المعرفة ممكنا فلم يعد موت الفرد يعني زوال الخبرات المكتسبة وذلك بسبب نشوء اللغة والوثائق وهو الامر الذي ادى الى تكوين بنى مستقلة ذاتيا ضمن الانماط السلوكية للجنس دعيت باسم الحضارات والثقافات هذه الحضارات والثقافات نشأت وبادت غير انها ، ككل ، ظلت تتطور باطراد نحو درجات اعلى من الرقي . ولقد اختلف التطور الثقافي عن التطور البيولوجي من حيث مقياسه الزمني الذي كان اسرع بكثير . فهو لم يكن ينتظر تغيرات البيئة الطبيعية او المورثات ، كما أن المبادىء السائدة لم تعد بصورة حصرية بقاء النوع بل ايضا بقاء ما يمكن ان ندعوه بالافكار .

بذلك بلغت عملية التضخم مدها الاقصى . فالافراد باتت لديهم القدرة على التأثير في مسار التطور الثقافي ، وهم انفسهم نتاج لتضخم الاسباب الثقافية والبيئية والوراثية .

على أن الصعوبات التي تواجه محاولات التفسير والتكهن تغدو اكبر واكبر بقدر ما يكون تعقيد الكائنات موضع النظر في سلم مراتب الطبيعة اشد واشد ، وما تطور المنظومات النجمية او خصائص الصخور،المعادن، السلاسل الجبلية الا امثلة على نتائج التضخم لاسباب صغيرة في ماضي الاشياء ذاتها وتاريخها الطويل . غير اننا نجد في عالم الحياة آثارامضخمة لم تترك تأثيرها على الشيء وحسب بل على اسلافه ايضا . علاوة على ذلك يتوجب علينا ان نضيف ، حين يتعلق الامر بالدماغ ، تأثيرات البيئة المضخمة على اعضاء الحس . وحين نصل اخيرا الى ظهور الانسان ، فان تأثيرات الافراد في مسار الاحداث يغدو ايضا ذا صلة بالامر . هذه هي الاسباب التي تجعل جزءا كبيرا من علوم الحياة ومعظم العلوم الاجتماعية وصفية اكثر مما هي تنبؤية . فهي لا تنفي امكانية معرفة الاتجاهات او القوانين العامة ، الا ان المهم في كثير من الظواهر البيولوجية والبشرية ليس العام بل الخاص والمحدد .

مع ذلك علينا ان نتحاشى نقطة واحدة بناء فيهما وهي أن وقوع احداث غير قابلة للتكهن لا يعني ان قوانين الطبيعة قد انتهكت ، بل على العكس : ذلك ان الاسباب الفعلية وآليات التضخيم ليست « معجزات » من وجهة النظر العلمية بل هي ممكنة الادراك قابلة للتكهن . وهذا ما حدانا لان ندعو هذه الحدود بالحدود الداخلية فالواقع ان قوانين الطبيعة تقضي أن تحدث آثار تضخيم كهذه ضمن شروط معينة كتلك التي تتوفر حين تتطور الحياة او تتشكل المجرات . وما ان يحدث تضخيم لواقعة مجهرية ما حتى يغدو بالامكان تماما في كثير من الحالات التكهن بسلاسل الوقائع التي ستتبع ذلك . ان للنهج العلمي قدرة تنبؤية ما فيما يتعلق بما سيحدث بعد ان يقع حادث غير قابل للتكهن ، وهي القدرة التي ستزداد بتطور العلوم وتقدمها اكثر فاكثر . وهذا ينطبق بالتأكيد على كل من عالم الجمادات وعالم الاحياء لكنه قد يكون موضع شك في عالم الاجتماع نظرا لان تدخل الافراد وتأثيرهم في مسار الاحداث يصبح جوهريا هنا .

الحدود الخارجية للعلم ـ قدرة البشر الابداعية .

لقد ادى تطور الثقافات والحضارة لدى الجنس البشري الى حدوث تصعيد جديد للامكانات وبالتالي ظهور عائق جديد امام اى قدرة علميــة على التكهن . لنلق نظرة على شكل محدد من اشكال التعبير الثقافــي في الكتب والرسوم ، بغية استخلاص بعض الاعتبارات الكمية . ان امكانيات جمع كلمات في كتاب او عناصر لونية في رسم ، هي من الكبر الى درجة يفوق عددها كثيرا عدد التركيبات الوراثية الممكنة كلها . لكن عددالتركيبات الكلامية او اللونية « ذات المعنى » ، بأي شكل من اشكال هذا المعنى ، هو بالطبع ، اقل بكثير ، غير انه يظل اكبر بكثير من عدد الأنواع البيولوجية الممكنة ، القابلة للحياة . ومن الواضح أن الكتب والرسوم الموجودة لاتمثل الا جــزءا ضئيلا منها . وهذا مايفسر السبب الذي يجعل النهج العلمــي يواجه قيودا اكثر خطورة حتى ، عندما يطبق على مايبدعه العقل البشري ويُعبر عنه . هذه القيود ندعوها بالقيود الخارجيــة ، لأنها دخيلة علــى نظامها المفاهيمي الخاص . لكن ، ثمة مفهوم خاص يميز هذه القيود الا وهو مفهوم التكامل .ففي الخبرات البشريةالتي تعد «متكاملة» مع او «متممة» للوصف العلمي ، ثمة ظواهر هامة ووثيقة الصلة . ولقد اكتسـب مفهــوم التكامــل دلالة اكبر واهمية اشد عندمــا استخدمه نيلز بوهر لوصــف الاوضاع التي توجد فيها عدة طرق الى الحقيقة ينفي بعضـها بعضا . فهي تمثل جوانب مختلفة ، كل منها ينفي وجود الآخر ، مع ذلك فانها تضيف شيئا الى فهمنا للظاهرة ككل . مثل هذه الأوضاع المتكاملة تظهر حتى ضمن الفيزياء ، مثال على ذلك ، ما يتعلق بوصف ذرة من الذرات من حيث حالة الكم او من حيث موضع عناصره المكونة . ذلك ان حالة الكم تتلاشى اذاماتم رصدها بواسطة آلة شديدة الدقة مصممة لتحديد موقع الالكترون ، وتعود الحالة الى حين تترك الذرة وشأنها وتعطى وقتا كافيا للعودة الى شكلها الاصلي .اذن ، كلاالجانبين ـ حالة الكم والموقع ـ متكاملان يتمم واحدهما الآخر ؛ وهما مفهومان ضروريان لتوفير الرؤية التامة والتغلغل الكامــل داخل واقع الذرة .

وكما أستنتج بوهر فان تكاملات مماثلة غالبا ما تظهر في ميادين المعرفة البشرية كلها. ان هناك طرقا مختلفة لملاحظة وضع من الاوضاع وادراكه. طرقا قد تبدو وكأنما لاصله لبعضها بالبعض الاخر بل حتى متناقضة. الا انها ضرورية لفهم الوضع باجماليته وشموليته.

ومثال بسيط قد يكفي. فسوناتة[1] لبيتهوفن يمكن تحليلها فيزيائيا بدراسة الاهتزازات في الهواء كما يمكن تحليلها نفسانيا بدراسة العمليات التي تجري في دماغ المستمع لكن هناك طريقة اخرى تجعلنا اقرب لما نعتبره اكثر اهمية وجوهرية في سوناتة بيتهوفن: تناول الانطباع المباشر والفوري الناشىء عن الموسيقى.

وقد تفيد القصة التالية كتوضيح للطرق المتكاملة: كان فليكس بلوش وورنر هايزمبرغ يتمشيان على طول الشاطىء ويناقشان مشكلات الفيزياء وكان بلوش يقدم لهايزنبرغ بعض الافكار الجديدة المتعلقة بتراكيب رياضية معينة عن الفضاء حين هتف هايزنبرغ. وقد طار تفكيره الى سبل الخبرة المتكاملة. قائلا « الفضاء ازرق والطيور تطير فيه! »

كذلك هناك أوضاع متكاملة اخرى تدل عليها الثنائيات التالية من المواقف البشرية تجاه عوالم الخبرة المختلفة: العلمية ــ الشعرية: الرأفة ــ العدالة ــ فيزيولوجيا الاعصاب ــ السيكولوجيا. الفعل ــ التفكير. علما انه ليس في نيتنا التوكيد على الجانب الثنائي للتكاملية بل العكس. فالهدف الرئيسي من هذه الفكرة هو القول ان هناك طرقا كثيرة متباينة.

على اننا نؤكد ان النواحي الهامة من الخبرة البشرية لا يمكن تقويمها تقويما معقولا من خلال النهج العلمي. اذ لا يمكن ان يكون هناك تعريف

---

(١) السوناتة: لحن موسيقي لآلة واحدة أو آلتين كالبيانو والكمان مثلا.

علمي شامل كامل للخير او الشر ، الرأفة او الشفقة ، الجدل او النشوة، المأساة او الدعابة ، الكراهية او الحب ، الايمان ، الرفعة ، الهوان ، او لمفاهيم مثل ماهية الحياة او السعادة . وبلا ريب فان من الممكن والمستحسن ان نحلل العمليات العصبية والنفسية وردود الفعل التي تحدث اثناء العملية ذاتها ، عملية التفكير بأفكار كهذه . فالتقدم الذي تحقق حديثا في مجال فيزيولوجيا الاعصاب والكيمياء الحيوية يقدم لنا وعودا طيبة بامكانية التوصل الى اكتشافات علمية اعمق كثيرا في ذلك الجانب من جوانب الخبرات البشرية ، بل يعدنا بأننا قد نحصل على الوسيلة القادرة على التأثير في ردود فعل كهذه وتغييرها واستثارتها . لكن تبقى هناك جوانب هامة من تلك الخبرات لا تستطيع الطرق العلمية مسها . هذه الجوانب هي ، بالعادة ، الاهم والاشد وثاقة بنا .

كذلك هناك طرق اخرى لتناول مشكلات الخبرة البشرية وقضاياها، هذه الطرق تتمثل في الفن ، الشعر ، الادب ، الموسيقى وفي اشكال التعبير ذات الصلة بعلم الاخلاق ، الفلسفة ، علم النفس ، وكذلك بالايمان ، الدين ، الاساطير . انها تدل على اشكال من القدرة الابداعية لدى البشر ، تختلف عن القدرة الابداعية التي تجعل العلم ممكنا . والمقارنة بين طرق العلم وطرق المقاربة الاخرى ليست بالضرورة مقارنة بين التفكير العقلاني والشعور العاطفي . فالمرء يمكنه التكلم بصورة عقلانية عن الانطباعات العاطفية ، عن الموسيقى والفنون الاخرى ، عن المشكلات الاخلاقية ، عن اعاجيب الطبيعة ، اتساع الكون الهائل ، وعن التطور العظيم الذي حدث بدءا من حركة النشاط الاولى وحتى الكون الحالي . مع ذلك ، هناك ضمن كل طريقة ، نمط محدد للحديث يتجلى على نحو واضح ودقيق ضمن سلم قيمه الداخلية الخاصة ، الا انه يبدو ضعيفا غير محدد المعالم حين تطبق عليه الشروط الخاصة بطريقة متممة اخرى. اذن ، كل وجهة نظر تتمم الاخرى وعلينا أن نستخدمها جميعا بغية الحصول على المغزى الكامل لخبراتنا .

لكن لسوء الحظ ، ثمة مقاومة معينة يبديها الذهن البشري تجاه التعرف الى الجوانب المتنامة . فهناك اتجاه طاغ لدى الانسان نحو الاجوبة الواضحة الجازمة التي تنفي الطرق الاخرى . مثال على ذلك . غالبا ما ينظر الى الطريقة العلمية باعتبارها الطريقة المقبولة والجدية الوحيدة . كما يعتقد انه ما من حقل من حقول الخبرة البشرية متعذر المنال . من حيث المبدا ، على البحث العلمي والفهم العلمي ، رغم ان دراسة عمليات التفكير ماتزال في بداياتها . وقد يكون للعلم مبرراته في ادعائه مثل هذا الكمال . لكن « الكمال » هنا لا يعني « شمول ـ كل شيء » اذ حتى لو توصلنا الى فهم علمي لعمليات التفكير والشعور فسوف يبقى من الضروري استخدام طرق التعبير الاخرى للتعامل مع خبراتنا . ان بامكان نهج معين للتفكير . كالعلم مثلا ، ان يكون كاملا ضمن اطاره التفكيري الخاص ، لكنه سيظل يهمل جوانب هامة من خبرات البشر . والحقيقة أن هذه الجوانب المهملة ، في مسائل التفكير البشري والفعل والشعور ، غالبا ما تشكل الجوانب الاهم والاكثر وثاقة بنا . ان بعض الاراء المتحيزة ضد العلم والتكنولوجيا تقوم بالاساس على المعارضة شبه الواعية لهذا الادعاء الضمني بالكمال . لهذا نقول ان الطريقة العلمية ليست هي الطريقة المقبولة والمشروعة الوحيدة .

ففي اي وقت يحدث تطوير شديد وناجح لطريقة ما من طرق التفكير تتعرض الطرق الاخرى للاهمال بلا مبرر . وقد عبر عن ذلك ماركوس فيرز الفيلسوف والفيزيائي السويسري خير تعبير حين قال « لقد ألقت الاكتشافات العلمية التي تمت في عصرنا نورا باهرا على جوانب معينة من الخبرات البشرية الى درجة أبقت معها بقية الجوانب في ظلام دامس أشد من ذي قبل » .

وفيما يلي مثال هام من عصر كانت فيه الطريقة موضع كبت وقمع والطريقة الدينية موضع هيمنة وسيادة . ففي سنة ١٠٥٤ ، ابان ارتفاع

المد الديني في اوربا ، ظهر مستسعر(١) خارق للعادة اشد القا من اي كوكب اخر وقد استمر ثلاثة او اربعة اشهر ، مع ذلك ، ما من مؤرخ واحد في اوروبا جاء على ذكر هذه الظاهرة . ذلك ان ظهور نجم اشد لمعانا من جميع النجوم الاخرى لم يكن ، في العصور الوسطى ، بعد حقيقة هامة تستحق التسجيل .

ان التركيز الوحيد الجانب على الدين في العصور الوسطى وكذلك التركيز العلمي التكنولوجي الوحيد الجانب في عصرنا هذا قد اطلقا قدرات ابداعية بالغة القوة . لنتأمل ما تحقق من اعمال ابداعية في مجال الفن ، العمارة ، فلسفة الاخلاق في العصور الوسطى وما يتحقق من تطور في العلوم ، الفلسفة الطبيعية ، التكنولوجيا في عصرنا هذا . مع ذلك وفي الوقت ذاته ، فقد قادت كلتا الطريقتين وحيدتي ــ الجانب الى اساءات خطيرة . كالحروب الصليبية مثلا واهمال المعاناة الجسدية في العصور الوسطى وكذلك الاهتمام المفرط بالقيم والمنافع المادية في العصر الحاضر .

وكما هي العادة في تاريخ الجنس البشري ، فان كل تركيز من هذه التركيزات تعرض للتشويه والاستغلال كوسيلة وسبب للقتل والتدمير الجماعي . ويكفي ان نفكر بالحروب الحديثة وسباق التسلح النووي اليوم ــ او بجواب المبعوث البابوي آبوت ارنود دى سيتو على سؤال وجهه احدهم عما ينبغي فعله بسكان بلدة بيزييه بعد أن تم فتحها في العام ١٢٠٥ حين قال « اقتلوهم عن بكرة ابيهم . والرب يصطفي من سيذهبون الى الجنة ممن سيذهبون الى الجحيم » .

على اننا ينبغي ان نستنتج ان للعلم ذاته جذورا واصولا تمتد خارج عالم التفكير العقلاني الذي شاده لنفسه . فمن حيث الجوهر ، يبدو

(١) المستسعر : نجم يتعاظم ضياؤه فجاة ثم يخبو خلال بضعة اشهر او سنين .

ان هناك « نظرية غوديل في العلوم » وهي النظرية القائلة بأن العلم ممكن فقط ضمن اطار القضايا والشؤون اللاعلمية الاشمل . وقد برهن غوديل هذا ، وهو عالم رياضيات ، على انه لا يمكن لمجموعة من المسلمات البديهية أن تقوم بذاتها . فلكي نبرهن على صحتها وتماسكها . لا بد من اللجوء الى بينات من خارج المجموعة . وبأسلوب مشابه نقول لا بد لفعالية العلم من أن يحتويها عالم الخبرات البشرية الاوسع بكثير . ذلك ان العلم سيكون مستحيلا ان لم يقتنع كل عالم وكل مجتمع بأن الحقيقة العلمية أساسية وهامة . فالرصد العلمي للمستسعر الخارق للعادة عام ١٠٥٤ لم يحظ من أوروبا العصور الوسطى باي اهتمام وذلك لسبب واحد هو انها لم تكن تعتبره مهما على الاطلاق .

اذن نتضمن الخبرة البشرية اكثر بكثير مما يستطيع اي نهج معين في التفكير أن يعبر عنه ضمن الاطار الخاص لمفاهيمه وبالتالي علينا ان نتلقى بتقبل كامل اساليب التفكير المتنوعة والمختلفة بل والمتناقضة ظاهريا حين يواجهنا واقع الطبيعة ، واقع خلافنا وواقع العلاقات البشرية . فهناك اساليب كثيرة في التفكير والشعور : كل منها يتضمن جزءا مما يمكننا أن نعتبره الحقيقة . صحيح ان العلم والتكنولوجيا يتضمنان بعض الادوات الاشد قوة وايصالا الى تبصر اعمق والى حل للمشكلات التي نواجهها والتي خلقتها بالحقيقة الاستخدامات الطائشة لتلك الادوات ذاتها ، كتلوث بيئتنا مثلا وتزايد الخطر الداهم للحرب النووية — وهو الاول والاهم . لكن الصحيح ايضا ان العلم والتكنولوجيا سبيل واحد لا غير من سبل الوصول الى الحقيقة : ولا بد من السبل الاخرى لادراك المغزى الكامل لوجودنا ، بل ان تلك السبل ضرورية ، بالواقع ، للحيلولة دون الاستخدامات الطائشة واللاانسانية لما توصل اليه العلم . فنحن بأمس الحاجة الى جميع المناهج والطرق بغية معالجة مآزق البشرية التي تحول بين الكثير من اخوتنا البشر وبين توفر حياة لهم تستحق العيش .

☆ ☆ ☆

دور الجنس والموت في الابداع الأدبي

حنا عبود

- ١ -

يمكس النص الادبي ، والشعر بنوع خاص ، شبكة من العلاقات بين نظامين : النظام الداخلي للمبدع ، والنظام الخارجي للطبيعة والمجتمع والكون . ونعتقد ان هذا شيء اساسي لكل مشروع ادبي . ولو راقبنا انسانا عاديا ، او اذا اردنا الدقة قلنا انسانا لا يتعاطى الادب ، فلاحظنا ان شبكة التواصل بين نظامه الداخلي والنظام الخارجي تنحصر في دائرة ضيقة ، يمكن ان نتلمس محيطها بمتابعة الممارسات والاهتمامات التي يتعاطاها من لا يتعاطى الادب . فالصانع والعامل والتاجر والحرفي ورجل الاعمال لهم شبكتهم العلائقية الخاصة بالعالم الخارجي ، في حين لا حدود لوشائج هذه الشبكة العلائقية عند الاديب والشاعر ، ويمكن ان تضيف اليهما الفيلسوف ، باعتبار ان الفلسفة هي

الوليد الاول الذي تمخض عنه الادب ، أو بالاحرى تمخض عنه الشعر . ولا تتميز هذه الشبكة بامتدادها فقط ، بـل تتميز الى جانب ذلـك بوشائجها المشتجرة المتداخلة بصورة معقدة وغريبة . وتوفر هذه الشبكة للمبدع خلفية اساسية تضع أمامه فرص الامتداد اتساعا والغوص عمقا.

وحتى لا يحمل كلامنا على غير محمله ، نسرع الى القول ، ان المكونات الاساسية للجسد البشري واحدة بين جميع افراد النوع ، فلا ميزة في هذا المجال لشاعر على تاجر ، ولا لأديب على رجل اعمال . ولكن جدلية الوجود تفرض المغايرة الى جانب الوحدة . وقد سبق أن اوضحنا ان الموهبة الشعرية (الادبية) تتاخر من جهة (مـن السن الثانية عشرة حتى الرابعة عشـرة) . وتترافق مـع اكتمال نمـو الدماغ واضمحلال الغدة التايموسية من جهة اخرى . وقد فسرنا السبب او الاسباب الكامنة وراء ذلك . فعندما ننطلق الان من دراسة شبكة العلاقات بين النظامين الداخلي والخارجي ، فان ذلك لا يعني العودة الى مناقشة بزوغ فجر الموهبة الشعرية ، بل يعني الانطلاق من مقارنة فرد تمت له الموهبة الشعرية (الادبية) وآخر تأخرت له موهبته الاخرى ، او مقارنة شاعر مبدع بشاعر عادي .

سوف نناقش ، اولا بأولا النظام الداخلي الذي يخضع له الجسد ، والتحولات التي تطرأ عليه بعد أن تكون عوامل الوهبة قد اتمت عملها وحققت النتيجة الايجابية ، اي ما بعد السن الرابعة عشرة .

نود أن نشير الان الى أن الامر لا يتعلق بالموهبة الادبية وحدها ، والا لهان حل المسألة ، بل يتعلق بكثير من المواهب ، بعضها يسبق الموهبة الادبية وبعضها يتأخر عنها . والملاحظ أن معظم المواهب تسبق الموهبة الادبية ، والقليل يتأخر عنها . ومن النادر جدا أن تظهر موهبة بعد السن الثانية والعشرين . واذا ظهرت فالارجح ان تكن نوعا من تنمية المهارات التي تعتمد على موهبة كامنة ، كانت قد ظهرت ولكنها كبتت وابعدت . ومع ذلك تبقى موهبة « عاجزة » في هذه السن .

بات من المؤكد أن المواهب الموسيقية والصوتية تظهر أبكر من المواهب الادبية . فليس من المستبعد ان تسد تلك المواهب الطريق امام الموهبة الادبية ، اذا ما لبى الفرد نداءها واستجاب لها . فلا بد اذن من توفير مـا يسمى « التكريس » او ان شئت قلت « التخصص » حتى يتحقق النبوغ في الموهبة . اما تلبية نداء جميع المواهب والاهتمام بتنميتها كلها ، فالاغلب ان يؤدي ذلك الى حالة وسط ، فيتحول النبوغ الى المام والموهبة الى هواية . وقد لوحظ ان اكثر من موهبة تطرق باب المراهق . والمسألة تبقى محصورة في درجات الاستجابة . وحسب درجات الاستجابة يمكن ان نضع سلما للمواهب . المهم ان تكون ثمة موهبة مكرسة ، او مكرس لها ، اكثر من غيرها . والمعروف ان ثمة مواهب تؤازر ، ولا تعرقل : الموهبة الكبرى ، فالموسيقي والايقاع والرسم والتصوير كلها مواهب تؤازر الموهبة الادبية ، شريطة الا تطغى احداها على الموهبة الادبية . وبالمقابل ثمة مواهب اوا ستعدادات تعرقل الموهبة الادبية . ولعل القارىء يدهش اذا قلنا ان الانجراف وراء اللغويات (الغراماتيكا) من المعوقات للموهبة الشعرية . وهذا ما دلت عليه الاحصائيات في الغرب . ونلاحظ نحـن ايضا ان الشرق لم يعرف غراماتيكيا حقق في شعره ملمحا جماليا الا في درجات دنيا . والمقصود من كلامنا هو التعمق في الابحاث اللغوية ، وليس معرفتها ، اذ معرفتها واتقانها من أولى المتطلبات اللسانية للتعبير الشعري. ولكن الانجراف وراء اللغة ينمي منطق العلاقات بين الالفاظ والتراكيب ، مما يحجب عن الغراماتيكي شعرية اللغة . وقد لوحظ ان الموهبة الشعرية ان تستيقظ اذا ما هجعت امدا طويلا ؛ على عكس الموهبة الموسيقية التي تتطلب مهارات حركية لايقاظها .

واذا استعضنا عن « الموهبة » الموسيقية بـ « الحس الموسيقي » او « الحس الايقاعي » تبين لنا ان هذا « الحس » من ضرورات الموهبة الشعرية ومستلزماتها . ومن دون هذا الماهد الحسي لا تترسخ الموهبـة الشعرية . ان الحس الايقاعي شيفرة اساسية للغة الشعرية ، تحتاج الى بحث خاص .

نبدأ الان بملاحظة النظام الداخلي للمبدع في الفترة الواقعة بين الثانية عشرة والرابعة عشرة ، وبعدها ننتقل الى ملاحظة النظام الخارجي ثم الشبكة التي تربط بينهما .

في هذه المرحلة الحرجة من حياة الفرد نلاحظ :

١ ــ اختفاء غدة التايموس ، وتوقف الدماغ عن النمو .

٢ ــ النضج الجنسي ــ غريزة الجنس تأخذ كامل ابعادها .

٣ ــ عامل النمو يظل مستمرا ، والغدة النخامية تتابع عملها ، الا ان الدماغ لا يتاثر بها .

٤ ــ تتكون البنية الاساسية للجسد ، بمعنى ان الجسد يأخذ طابعه الفيزيولوجي العام ، فيخضع لطبع من الطباع المعروفة : انبساطي ، انطوائي : عصبي ، لمفاوي ، عضلي ... الخ وقد يكون مزيجا يتالف من اكثر من طبع او مزاج واحد ، والامزجة ليست بعيدة عن التاثير في تلوين النبوغ الادبي بالوانها .

فلنفرض الآن ان لكل نوع ادبي ملكة خاصة ، اي ملكة للرواية واخرى للقصة وثالثة للخطابة ورابعة للانشاء الادبي ... الخ . نلاحظ أن الملكة الشعرية من بين جميع الملكات هي الوحيدة التي تترافق مع ظهور الجنس أو بالاصح ، هي التي تظهر لدى اكتمال الغريزة الجنسية . ان ملكة القصص ــ على سبيل المثال ــ قد تظهر قبل هذه السن . فمن الممكن لصبي صغير ان يبدي ملكة قصصية وهو دون العاشرة ، وعلى الاخص ذلك النوع الذي سُمّي عليه اسم « حكاية » ، وما اخطأ من سمى الطفل في هذه المرحلة « الحكواتي » .

من البنود الاربعة السابقة ، ومن غيرها ايضا ، يتشكل نظام داخلي ، مرتبط مع بعضه من جهة ومع الجسم من جهة اخرى بسيبرنتية دقيقة .

ولكن هذا النظام الداخلي ليس بعيدا عن النظام الخارجي ، بل انه في الحقيقة يدور في قلب هذا النظام .

الاغلب أن يكون الانفجار الاول للنظام الداخلي « قصيدة غزلية » فلم يعرف الا القليل من الشعراء الذين انفجر نظامهم الداخلي بقصيدة غير غزلية ، الا انهم قدرة لا يقاس عليها ولا يعتد بها . وسواء استخدم الشاعر اللغة الفصيحة ام اللغة العامية ، فان الباكورة الشعرية الاولى هي « الغزل » . وحتى لو لم يكن شاعرا ، فان الفاظا معينة تدور في مجال « الغزل » تبدأ بالتردد على فمه . بالطبع لن يسمع الآباء بمثل هذه الالفاظ من اولادهم ، بل من أبناء الاخرين ، لان الولد في هذه الفترة يلجأ الى المخادعة والمداراة ، ثم تليها فترة من التوازن .

وقد اطلعت على بعض الانتاج الشعري للمراهقين ، فوجدت « لغة الغزل » هي السائدة ، سواء اكانت اللغة الفصحى هي الراجحة ام اللغة العامية ، والاغلب ان يلجأ شاعرنا الجديد الى بعض الالفاظ العامية التي تناسب « لغته الغزلية » ، اذا لم يجدها في الفصحى ، او اذا كانت هذه الالفاظ الفصيحة لا تفصح تماما عن نزوعاته او نزواته ، كما تفصح الالفاظ العامية . واذا اتفق وناقشته في هذا الامر انبرى يقول ان هذه اللفظة ادق تعبيرا عن « ذاتي » من تلك . . . وهكذا .

هنا نجد المنطوق الشعري يتطابق والنظام الداخلي الطبيعي . أما النظام الخارجي فلا يكون له سوى تأثير ضئيل للغاية .

اذا فسحنا المجال امام هذا النظام الداخلي الطبيعي ، وابعدنا عنه النظام الخارجي ، فانه يتطور تطورا شبه حتمي ، كما لاحظت ذلك في محاولات ابناء الريف قبل ثلاثين عاما حين كان الريف معزولا أو شبه معزول عن العالم الصاخب . كانت لغة « الغزل » اي لغة الجنس ، تكاد تكون واحدة لدى تجارب الشباب واليافعين . وأول فارق يلاحظه المرء بين تجربة واخرى ليبدو على الصعيد اللغوي . فمن نسيج مخملي

الى نسيج مهلهل . ومن بناء متضافر الى بناء مفكك ... مما يجعل المرء يستطلع الناحية الفنية والبنية اللغوية قبل غيرها . وبالطبع لن تنجح محاولات أولئك الذين لا يمتلكون مراكز لغوية في دماغهم تمكنهم من السيطرة على التركيب اللغوي ، واستيعاب عمليات اللغة المتداخلة والمعقدة . ولكننا نلاحظ ان انجح المحاولات وأفشلها تشترك في لغة واحدة تقريبا : مفردات معينة . تراكيب تكاد تكون واحدة . صور متقاربة . وصف أعضاء معينه من جسد الانثى وعلى الاخص العينان والفم والصدر . ويشرك الشاعر الناشىء كثيرا من مظاهر الطبيعة في عمليته الشعرية مستعينا بها احيانا ، متسترا خلفها أحيانا اخرى . واحيانا تتحول الاشياء في الطبيعة الى نوع من الفيتيشية . فنسيم الصباح يحمل الحب واللقاء ونسيم المساء يحمل الفم والنأي ، والبلبل يدب في القلب السوداء ، والغراب يفرق بين العاشقين . وكثيرا ما يقيم الناشىء بين الاشياء الطبيعية انواعا من العلاقات الجنسية . فالندى يقبل البراعم . والنسيم يداعب الزهور . واغصان الاشجار تتعانق . والنرجس يبث شجونه والقامة تفتح صدرها للريح ... ويشرك بعض الطيور والحشرات والحيوانات مع مظاهر الطبيعة واشيائها كالنحلة واليمامة والخروف .

الجنس . هنا يفصح عن ذاته بصورة مباشرة تقريبا . وعلينا الا ننخدع بتلك المواربات التي تسمى الغزل الخجول أو الغزل العذري . فقد تبين لنا أن هذا النوع اشد تعبيرا عن الجنس بما لا يقاس من النوع الاخر الفاضح ، حتى لنكاد نضع قانونا ناظما وهو : كلما اوغل الشاعر في المواربة والتحايل . دل على عمق الجذور الجنسية .

هذان النوعان من الغزل او من الجنسية يتشكلان في منطقتين دماغيتين قبل أن يظهرا ، او يمكن القول على وجه الدقة . ان هذين النوعين هما نتاج صراع بين مركزين دماغيين ، الاول مركز المهاد والثاني القشرة المخية . ففي السن التي حددناها تكثر مطالب المهاد ، ومعظمها

مطالب جنسية ، من القشرة المخية ، تتلقى القشرة رسائل المهاد وتناقشها، او بالاحرى تتشاور معه فيها . فما كان منها مطالب « معقولة » فانها تسمح بها ، فتظهر كما هي من دون مواربة ، وتتبدى لنا ادبا غزليا فاضحا ، في حديث صريح عن بعض ، وليس عن كل ، المحرمات الجنسية. وما كان منها مطالب « غير معقولة » ، اي مطالب موغلة في الشبقية ، فانها لا تسمح باظهارها على صورتها التي قدمها بها المهاد ، بل تتحايل قليلا او كثيرا ، وتقلف وتغير وتقلب وتبدل وتأتي بكثير من اثواب « العفة » تلف بها هذه الصور ، فتتبدى لنا ادبا غزليا عذريا ناعما . . . ومقبولا .

وعلى الرغم من انني كنت قد قرأت رواية « تاييس » لاناتول فرانس في تلك السنوات بالذات ، لم يخطر ببالي عقد مقارنة بينها وبين المحاولات التي كنت اطلع عليها . وقد عدت الان الى الرواية ورحت اتفحص « مواعظ » الراهب و « مباذل » تاييس ، فعثرت في « المواعظ » على شبقية عميقة مقموعة ، اين منها « مباذل » تاييس ، والخاتمة الروائية التي كنت اعجب لها ، واعتبرها خاتمة مفاجئة ، بدت لي خاتمة جد طبيعية ، اذ لم تكن العذابات « النسكية » سوى عذابات شبقية .

ربما نسمع صوتا صارخا يقول : ان القشرة المخية لا تقوم بما قامت به من تعديل وتزييف الا بسبب وجود انظمة مجتمعية ، فعملها أشبه بجواز مرور يرضى به المجتمع على حد قول فرويد لدى مناقشته علاقة الوعي ، الذي تبين الان ان مركزه القشرة المخية ، واللا وعي ، الذي تبين ان مركزه المهاد .

لا أحد ينكر الدور الذي يلعبه النظام الخارجي (المجتمع) في هذه العملية . ولكننا حتى الان نناقش الامر مفترضين ان هذا النظام الخارجي لا وجود له . فلو نحينا هذا النظام الخارجي ــ والتنحية افتراضية وليست حقيقية ــ لوجدنا انفسنا امام المعطيات التالية :

١ ــ العملية الجنسية بدت للانسان القديم اشبه بالجريمة . ومعظم الميثولوجيات والمرويات القديمة ، وخاصة في الشرق ، تقر بأنها خطيئة مميتة ، فعندما اكل آدم التفاحة ، وكانت حواء قد سبقته الى اكلها ، أي عندما عرف كل شق شقه الاخر ، تجلى عريهما ، وعرفا انهما خالفا وصية الرب . وكانت نتيجة هذه المعرفة الجنسية الموت الذي قضى به الرب على أبناء آدم . ومن هنا كان اقتران الجنس بالموت ، وهو الموضوع الذي سنعود اليه فيما بعد ، اشبه باقتران الجريمة بالعقاب . هذا الاحساس العميق بأن العملية الجنسية جريمة ، جعلت الشعر ، اول الانواع الادبية ظهورا ، يميل الى عرضها عرضا بعيدا عن المباشرة . فهو يزينها للانثى ويهون من امرها ، بل يعتبرها بابا للحياة والسعادة ، وهو يعلم تمام العلم انه يكذب . فاي حياة وأي سعادة في الحمل والولادة ؟ ان الاناث الضعيفات البنية كن يمتن اثناء الحمل او اثناء الولادة . وما اناث هذه الايام الا حفيدات تلك السلالة القوية التي صمدت امام الاصطفاء الطبيعي الذي قضى على اضعاف اضعاف عددهن من الاناث الضعيفات . كانت القاعدة العامة ان تموت الانثى وهي تلد او بعد ان تلد . لكأن الولادة ــ الناجمة من لقاء الشقين ــ جريمة قتل مؤكدة . لذلك نعتقد ان القشرة المخية تقوم بعملها بناء على نظام داخلي عميق وسحيق .

٢ ــ لقد عرف الانسان القديم أن مباشرة الجنس مباشرة فورية امر ترفضه كل انثى . وعرف ايضا انه لا بد من « ترقيق » جوانبها وتهيئتها . والانثى لا تتوفر عندها الرغبة الجنسية الا قبيل انطلاق البويضة ، في حين ان هذه الرغبة متوفرة دائما عند الذكر . وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على « اقبال » ذكري ، يقابله « نفور » انثوي . لا بد ــ اذن ــ من تذليل هذا النفور ، فيقوم الشعر بقلب طرفي المعادلة ، فيجعل الذكر هو المتذلل المستعطف المسكين ، ويجعل الانثى هي الظالمة المتكبرة القاسية . وفي اشعار غير قليلة يبدو الذكر متعففا والانثى متهالكة . لقد سعى الشعر ــ وهو نتاج الذكر ــ الى تزيين صورة الذكر ، واضفاء الصفات الرقيقة الناعمة الانسبة عليها ،

لتكون أشد قبولا واستحسانا من الاناث . وعلينا ان نتذكر ان الانثى قديما هي التي كانت تبت في رفض او قبول الرجل . وحين تقبله كان يضع عصا او قطعة من جلد على باب الخباء . وما تزال بقايا هذه العادة حتى اليوم ، فالذي يعرض هو الذكر ، يعرض خطوبته على الانثى ، فاذا وافقت تم الزواج . وحين تقبل خطوبته يقدم اليها ما يدل على انه خطيبها . وبالطبع لا يضع اليوم عصا على باب دارها . بل يضع خاتما في اصبعها .

لقد قلب الشعر المعادلة . والشعر انتاج الذكر . ان كل شيء يسير وفق مخطط ذكوري . من اجل الحصول على شقه الثاني . هذه الامور النابعة من الطبيعة البشرية يجب ان نعيها . وعندها نعرف لماذا يتخذ الشعر تلك الاساليب .

لذلك نعتقد ان القشرة المخية تقوم الان بما كانت تقوم به منذ آلاف السنين . منسجمة مع الطبيعة الجسدية . التي هي طبيعة واعية . على العكس من النظرة السطحية التي يتخذها بعضهم من الجسد . ومن هنا كانت الاشعار حقا طبيعيا للذكر . انها تنبع من طبيعته . واذا كنا نجد اليوم شيئا من ذلك لدى بعض الاناث . فلأنهن وريثات ذلك النوع الانثوي القوي الذي صمد للانتخاب الطبيعي ، والذي لم يعد يخشى ما كانت تخشاه الانثى القديمة .

٣ ــ اذا غضضنا الطرف عن كل شيء ، فاننا لا نستطيع غض الطرف عن تلك « الاشعار » ، منذ نشأتها وحتى اليوم . ولو اخذنا اي نص من اقدم وثيقة يتعلق بموضوعنا هذا ، من الوثائق السومرية « كلكاميش » او الهندية « المهابهاراتا » او « الرامايانا » او اليونانية « الالياذة » او « الاوديسة » او العبرية « نشيد الانشاد » او الايطالية « الكوميديا الالهية » وقارناه بنص من شعرنا اليوم لما وجدنا فرقا في الشيفرة الغزلية . لا شك ان ثمة فرقا في اساليب الاداء اللغوي . فلكل لغة قوانينها ، وفي اساليب التصوير الفني . فلكل بيئة موحياتها . وفي تلاوين الانفعال ،

فلكل فرد طريقته في تلوين احاسيسه . بيد أن الشيفرة الغزلية او الجنسية التي تحدثنا عنها ، والتي لا نرى فائدة من تكرارها ، نجدها نفسها في الادب القديم . حتى ان بعض الصيغ وبعض الرموز وبعض الصور تكاد تكون هي ذاتها . وهي في غناء الشعوب البدائية ، كما بين جميس فريزر ، نجد هذه الشيفرة واضحة كل الوضوح . وليس بين الايدي اليوم اي وثيقة تثبت عكس ذلك . وما على الراغب في الوثوق الا ان يقارن بين اي نص قديم وأي نص حديث ليتحقق بنفسه فما نذهب اليه .

لذلك نعتقد ان القشرة المخية تقوم بتحويل رسالة المهاد منذ الزمن السحيق . وليس نتيجة قيام المجتمع الحديث والحضارة القمعية القائمة اليوم . انها تقوم بذلك وفقا لنظام سبرنيتي جسدي له ابستمولوجيته الخاصة التي كانت محبوكة حتى العصر الحديث .

وحتى عندما لم يكن للانسان لغة نطقية جنسية ، كانت لديه لغة جنسية حركية .

ان صنوف الحيوانات وأنواع الطيور ، لا يتم بين ذكورها واناثها لقاء في المحاولة الاولى . الديك والطاووس والثور والنمر لا تقرب اناثها من المحاولة الاولى ولا الثانية . قد يحتاج الى الكثير من المحاولات . وقد تفشل كل المحاولات احيانا . ان الديك يبدأ بتقديم استعراض جسدي امام الانثى فينفش ريشه ويطوح برأسه يمينا وشمالا ويهز جيده ، ويصدر اصواتا خاصة . ثم يدور مرة واثنتين وثلاث مرات وأكثر حول الدجاجة . فاذا لم يفلح معها ، ولم تذعن له ، ابدى اعراضا مصطنعا ، وتصنع اللامبالاة وقلة الاكتراث . فاذا لم تتبعه ولم ترضخ له ، عاود الكرة من جديد مثنى وثلاث ورباع ... ثم بعد ذلك اما أن يذهب في حال سبيله ، واما ان ينقلب من الرقة والمداعبة الى العنف فيضرب بمنقاره ظهر الدجاجة ، فان لم تلب ازدادت ساديته شراسة ، وطفق

ينقرها في راسها على عرفها حتى يدميه احيانا . وهنا اما ان تهرب منه تلك الدجاجة او تستسلم له استسلام الخائف الفرق . ويمكن ملاحظة بقية الحيوانات الآهلة ، وكلها تسلك هذا المسلك ولكن بأشكال مختلفة .

ويتمتع ذكر الحيوان والطيور بسمات بيولوجية تميزه من الانثى . ان في مقدورنا تفريق الذكر من الانثى منذ النظرة الاولى ، فالذكر اجمل واكثر اتساقا في بنيته ، وله اشياء وأشياء ــ مثل لبدة الاسد وريش الطاووس وعرف الديك ... الخ ــ تزيد من تمايزه من الانثى التي تبدو جد قميئة اذا قيست اليه . لماذا ذكر الحيوان دائما اجمل من الانثى ؟ يرى داروين ان غريزة حفظ النوع هي التي جملت الذكر وزودته بهذه المزايا البيولوجية ، حتى تتقبله الانثى . وهذه المزايا البيولوجية اشبه بالابداع الشعري الذي يظهر في مرحلة المراهقة . ان الابداع ينبع من ضرورة بيولوجية . اما تدخل المجتمع ، او بالاحرى تدخل الوعي ــ حسب المصطلح الفرويدي ــ لتجميل او تحريف او تزيين « المزايا البيولوجية » للانسان ، اي الابداع الادبي ، فاظن انه مبالغ فيه من ناحية الجنس ، فلو لم يفرض اي قيود على المبدع لما تغير شيء في الخطاب الشعري . ان المجتمع يتدخل . وسوف نرى فيما بعد كيف يتدخل وما المجالات التي يظهر فيها تدخله . اما من هذه الناحية فان تاثيره محدود . ان الابداع يرافق النضج الجنسي لا الاجتماعي ، كما يرافق ظهور عرف الديك نضجه

فلنتابع الآن مسيرة « القصيدة الغزلية » التي تعتبر باكورة الابداع الادبي . انها « لغة جنسية » نابعة من النضج البيولوجي الذي تحقق لدى المراهق . ومن هذا الينبوع الثر تنبجس قنوات كثيرة متداخلة تشكل ما نسميه النظام الداخلي . ولا نتمكن من درس هذا النظام دراسة شاملة ، لانه قائم على سيبرنتية شمولية . يمكن ان ندرس اجزاءه وظواهره . اما ان ندرسه في سيبرنيتيته ، اي في عمله ككل متكامل متضافر ، فأمر مستحيل ، استحالة دراسة اي نظام سيبرنيتي آخر .

لا بد من تجميد النظام وابطاله عن العمل ، ثم النظر في عناصره ومكوناته . ولتقديم فكرة عن الشبكة القائمة بين عناصر النظام الداخلي نكتفي بالملاحظات التالية :

١ ــ المنبجس الجنسي يشكل المحور الاساسي لكل عملية ابداع شعري (ولا نريد الآن ان نوسع الموضوع في الحديث عن بقية الانواع) . وهذا المنبجس يظل مستمرا طيلة حياة المبدع . وكما يختلف مصب النبع عن منبجسه ، كذلك تختلف مراحل المنبجس الجنسي ؛ بطرق التعبير واساليب الالتفات ومرموزات الهواجس . ويمكن تحديد مرحلتين : الاولى تمتد من الرابعة عشرة حتى حدود الثلاثين ، والثانية تبدا من بعد الثلاثين مع اختلاف الافراد وفروقاتهم عن بعضهم . وسوف نقصر حديثنا الآن عن المرحلة الاولى من دون الثانية ، التي سنأتي عليها فيما بعد .

٢ ــ يسيطر المنبجس الجنسي على الطبيعة ، فتصبح امتدادا له . ويعتقد المرء أن المبدع يمتلك وعيا بالطبيعة . ولكنه اذا امعن النظر وجد ان هذا الوعي ما هو سوى ماصات للهاجس الجنسي تدرج الطبيعة في الجنس . الا ان الامر يختلف عندما يتجاوز المبدع هذه المرحلة التي لن يتجاوزها بحثنا . ان الطبيعة هي في الحقيقة جزء من العالم الداخلي للمبدع .

٣ ــ يتميز العالم الداخلي بالاضطراب والثوران ، وبفقدان التوازن والاتساق وعدم الانسجام مع العالم الخارجي . ويتجلى ذلك في شعر المبدع فهو سادي حينا مازوكي أحيانا ، مسالم حينا ثائر احيانا . والارجح ان يوجه ثورته ضد المجتمع ويتهمه بالفساد والعفونة وبقية الصفات التي تنتجها ثورته . الا اننا ، في التحليل الاخير ، نجد انفسنا أمام استعراض ديكي تنحصر ساحته في دارة محيطها يسيج اناه . وبحسب تجربة المبدع يتحدد الاتجاه العام . فقد يجد من يصفق لثورته

« الاجتماعية » او « السياسية » فيستحرى اللعبة ، وقد يفشل في استعراضه فيغير اللعبة ، وقد يزهد بعد فشل فينقلب الى قديس مثل تاييس ... وقد وقد ....

٤ ـ الآثار الاولى التي تصدر عن المنبجس لا تهتم بالطفولة ، فجميع المحاولات التي اطلعت عليها محاولات تنشد الرجولة ، اي الفحولة . العنفوان ـ القوة ـ الارادة ـ العزيمة ـ الهزء بالمستحيل ـ السخرية من الجبناء .... الخ وقد تنقلب هذه الصفات الى نقيضها فيما بعد كنوع من المازوكية لكنها في الاغلب تكون على النحو الذي صورناه في الآثار الاولى . الا انني فيما بعد اطلعت على محاولتين لشابين في السابعة عشرة من عمرها . فيهما ذكر للطفولة . ولكنهما يذكران الطفولة كتعزيز للفحولة فاحدهما يذكرها بانه كان وقتهـا طفلا ساذجـا ، او كتعزيز للعلاقة ، اذ يذكر الآخر انه لا ينسى لعبهما معا في الحقول وعلى البيادر ، ويعتب عليها انها لم تعد كما كانت .

٥ ـ اما ذكر المستقبل فكثير جدا جدا في المحاولات الاولى . ففيها نجد رسما لمعالم الحياة التي يريدها المبدع . او يصرخ مهددا بانه سوف يفعل كذا وكذا من اجل مستقبل زاهر . وبالطبع قد يغلف ذلك بادعائه انه انما يفعل ما يفعل لانقاذ العمال والمنكودين والشعب والجماهير والوطن والامة . ان هذه المرحلة تتميز باستغلال المبدع لكل ما يجده امامه من اجل استمرارية مشروعه الابداعي ونجاحه . اما الماضي فما اقل ذكره في المشروعات الاولى .

٦ ـ يكون الابداع في هذه المرحلة مشروعا سلطويا ذا هدف مباشر ومحدد . او بالاصح ، هدف بارز اكثر من غيره ، او يطغى على غيره . والاستهداف السلطوي للمشروع يتركز عادة في الانثى ، فهي المركز الذي يجعله في بؤرة المشروع ، المركز الذي يفيض عليه بالصور والالهامات الفنية . وعلى الرغم من هالة القدسية والنورانية والطهارة التي يضفيها

على مشروعه ، فانه يدرك ، بينه وبين نفسه ، ما لهذا المشروع من صلة قرابة بالمستويات الدنيا للغريزة الحيوانية . وكلما تعمق ادراكه ، اوغل اكثر فاكثر في اقتناص الصور المنوية « الطهرية » وتوليدها ، والتف حول ادراكه الحقيقي ، او اوهم نفسه انه انسان نوراني هو الآخر .

٧ ـ في الوقت الذي تكون فيه الانثى محور المشروع السلطوي للابداع . يكون الآخرون : كما سوف نبين فيما بعد ، محورا لمشروع استعلائي . فهو يعرف من النسبة العددية انه يختلف عن الآخرين . انه من تلك القلة المتميزة التي لا تصل الى اكثر من سبعة بالمليون او عشرة . ومثل هذه النسبة توحي اليه بأنه مبدع ، كما تفرض على الآخرين اعتباره مبدعا ، أو على الاقل احلاله مرتبة فوقية لا يطالها الا القلة القليلة . ويستغل هذا المحور لدعم المحور الانثوي فنجده يتيه كبرا ، ويدل بابداعه الشعري على الناس ، ليكسب المزيد من المزايا التي تساعده في محوره الاول . ويدخل في اعتقاده انه يمثل الاستثناء لا القاعدة . والحقيقة ان الابداع الادبي في هذا المجال يختلف عن غيره . ان مجرد قول الشعر في هذه السن يكفي لجعل القائل مبدعا ، وان بشكل مؤقت ، فان استطاع الانتقال من فرادته بين معاصريه الى فرادة بين الشعراء ، فانه عندئذ يعتبر من المبدعين حقا ، وان كانت معظم النظريات تذهب الى أن الابداع في الشعر يمكن أن نتلمسه في البواكير الاولى للانتاج الشعري ، وذ سنا بحاجة الى الانتظار طويلا . ولكن لنفرض ان الفتى بدأ بداية عادية . ان هذه البداية بحد ذاتها تحقق له نوعا من الشعور بالتفوق والاستعلاء ، مما يزيد في حدة بسط سلطته . في هذه المرحلة يعتبر ذاته قدوة المجتمع والانسانية ، فيشكك في تقدير امكانات الآخرين ومواهبهم ، ولا يشك في ان عواطفه من انبل العواطف ، وان مواقفه من اصدق المواقف ، وان المجتمع لم يكن ليتخلف لو ان كل الناس كانوا مثله . وحتى عندما ينضوي تحت لواء ايديولوجيا عمالية ، وحتى عندما يكرس

شعره العمال والفلاحين ، فانه يشعر بتمايزه واستعلائه عنهم وعن غيرهم . انه يمتلك شيئا نفيسا لا يستطيع جميع الناس أن يمتلكوه .

٨ ـ تكثر الفيتيشية جدا في البواكير الاولى للابداع . واكثرها يتصف بالفيتشية الفستان والعقد والمنديل وخصلة الشعر والرسالة والكنزة . ولم اعثر على غير ذلك الا فيما بعد في قصيدة واحدة ، حيث يدعي فيها الشاعر انه شم رائحة « رافعة النهدين » المعلقة على حبل غسيل دارها من بيته البعيد عن بيتها ، في الهبات الاولى لانسام الفجر ، فهب من رقاده ، وبدا نشيطا ، وقضى كل يومه المسحور برائحة رافعة الأثداء المعلقة على حبل الغسيل ، سعيدا معافى ، بعد أن كان تعيسا متألما . وفي قصيدة اخرى تتبع الشاعر آثار اقدام عرف انها لها ، فضحك منه صديقه ، فأصر على ذلك ، وتابع آثار الاقدام ، فاذا هما امام منزلها . لقد عرف هذه الآثار في الحقل . وظل يعرفها في الطريق وفوق الصخور حتى باب الدار ، اما خصلة الشعر والرسالة ، فلا يكاد شاعر يهملهما في بواكير شعره .

ان الفيتيشية تملأ ساحة الشاعر النفسية في هذه الفترة وتشكل عنصرا اساسيا في تكوين الصورة وتلوينها .

٩ ـ تحتل الاحلام ، وعلى الاخص احلام اليقظة ، قسما كبيرا من الساحة النفسية . ومن بين ستة أشخاص اعترف خمسة أنهم « دائما » يحلمون ، وادعى سادسهم انه « احيانا » يحلم . وادعى اثنان انهم لم يحلموا بالاناثى ليلا اطلاقا ، ان كل احلامهم الليلية تدور حول « حرب » لا يعرفان بين من ومن ، وحول « قنص » طائر يدعى في تلك المنطقة « الطردبيسة » وهو طائر لا يلفظ اسمه الا مؤنثا ، جميل المنظر ذو عنق طويل وفي رأسه بضع ريشات اشبه بالتاج . وكان هذان الفتيان صديقين حميمين ، يظلان مع بعضهما طيلة النهار مع هزيع من الليل والاغلب ان ينام هذا في بيت ذاك او العكس ، وكانا يهيمان بحب اختين شقيقتين .

اما احلام اليقظة فالجميع يتفقون على أنها :

آ ـ لا تستأذن عندما تأتي . تهجم فجأة وهي دائما تهجم ، حتى في قاعة الصف او في الزقاق .

ب ـ بعضها مزعج جدا ، فقد يرى احدهم انه يتقاتل وشقيق الفتاة . وبالطبع كان النصر دائما الى جانب الحالم . ولكن الاغلب أن « يقتنع » الشقيق بوجهة نظر الحالم ، بعد أن تهدأ المعركة بينهما اثر تدخل الآخرين ، وبذلك يكسب صديقا الى جانبه . ويضمن وجود « رسول » يحمل له رسائله . وآخر يحلم انه يتقاتل مع ابيها ، وتتدخل الفتاة لتطلعه على « كرامة » و « عزة » و « وجدان » الحالم فيصفح عنه . وآخر يحلم انه دحر في معركة وسال دمه فاشفق اهل الفتاة عليه ، وردوا عنه اقرباءهم . . . المهم أن الخاتمة تنتهي بانتصاره . اي تحقيق بغيته .

جـ ـ القليل منها بهيج مفرح ، مثل اللقاء بين المروج أو بين الوديان او في الكهوف او في بساتين الرمان . ولا ادري لماذا اكثرهم كان يرى نفسه في بستان الرمان .

د ـ معظمهم يفكر في كتابة قصيدة عقب احلام اليقظة العنيفة ، وليس بعد المفرح منها . وبعضهم ، اذا كان في جو مناسب ، يمسك القلم ويحاول أن ينظم بضعة ابيات ، فور انزياح حلم اليقظة عنه .

☆ ☆ ☆

شبكة النظام الداخلي هذه تظهر في المشروع الابداعي . بالطبع لا تظهر كلها معا في قصيدة ، ولكن اذا جمعنا انتاج المبدع في أقل من عام ، عثرنا على جميع عناصر النظام الداخلي : المحور الانثوي ـ المحور السلطوي ـ تجليات المحور السلطوي من سادية ومازوكية ـ الاتجاه المستقبلي ـ

اهمال الطفولة ـ التعلق بالاشياء الانثوية والايمان بفيتيشيتها ـ استخدام عناصر الطبيعة الخارجية كامتداد لعالمه الداخلي ـ الاكثار من الصور الحالمة والهائمة ـ التذبذب بين قطبين متعاكسين . فمن شدة جامحة الى خضوع مستكين ... الخ .

اذا ظهرت معالم الابداع في هذه الشبكة ، فان الارجح ، كما هو ملاحظ ، ان يتابع الشاعر سيرورته الابداعية ، اذا لم يحدث طارىء ، واذا توفرت الرغبة العميقة في المتابعة . والذي لا يستطيع أن يبدع في هذه المرحلة ، فلن يكون ثمة ابداع ، ولو طاول المبدع نوحا سنا . وما يصبح اقدر على الصياغة ، واقوى على امتلاك ناصية اللغة ، وقد يأتي بصور اشد تعقيدا ... لكن كل ذلك لن يجعل منه مبدعا حقيقيا . ولو نظرنا في سيرة اعلام الشعراء ، هنا او في اي قطر من اقطار العالم ، لتبين لنا ان المرحلة الانبجاسية الاولى هي التي تحدد كل شيء . انها ذروة الاندفاع من جهة ، وقمة التعبير عن الذات من جهة ثانية .

قد تكون بوارق الابداع في هذه المرحلة التي يتجلى فيها النظام الداخلي للمبدع ، بوارق متعثرة نوعا ما ، وقد يتخلص المبدع من هذا التعثر في المرحلة التالية ، او لا يتخلص . ولكن ان لم يكن ثمة ابداع في هذه المرحلة ، فلن يكون ثمة ابداع ، ولو طاول المبدع نوحا سنا . ومما يجعل واحدنا لا يقر بالابداع المبكر ، هو تلك المقارنة التي نعقدها بين اواخر النتاج الشعري وبواكيره ، فنرى فرقا غير قليل ، فنحكم ، هكذا ، ان التجارب الاولى كانت محاولات فجة مبتسرة . ولكن الفحص الدقيق ، والمقارنة المتمعنة بين الاواخر والاوائل ، يوضحان أن الفجاجة والابتسار في المحاولات الاولى متأتيان من عدم اتقان صنعة التزييف ، التي تخفي الكثير مما نسميه فجاجة أو ابتسارا ، والتي تأتي في المرحلة التالية . ولو افترضنا اننا عثرنا في المحاولات الاولى على ثلاثة عناصر شعرية ابداعية . فاذا نقبنا المحاولات الاخيرة ، عثرنا على هذه العناصر ذاتها ،

وهي العناصر الابداعية الاصلية . أما العناصر الابداعية التي اضافها الشاعر على عناصره الاولى ، فهي عناصر دخيلة ؛ جاءت بهـا الخبرة والدربة والاحتكاك والثقافة ... باختصار ان العناصر الابداعية الاخيرة هي عناصر اكتسـابيـة ، بينما العناصر الاولى هي العناصر الابداعيـة الحقيقية . ربما لا تروقنا المحاولات الاولى ؛ لعفويتها وحاجتهـا الى الصنعة الماهرة والخبرة العميقة الواسـعة ، وربما تروقنا كثيرا المحاولات الاخيرة ، لاناقتها ودقتها ومهارة صنعتها وعمق خبرتهـا ... الا ان البحث عن العناصر الابداعية لا يجدي ان لم يكن في المحاولات الاولى ... ان من الاجدى أن ينحي الدارس جانبا حسه الجمالي وتذوقه اللغوي وانبهاره بالحرفة الشعرية المتقنة ، والا فانه لن يفلح في تحري معالم الابداع الاولى .

ولكن هـل يبقى النظام الداخلي المنبثق كما هو ؟ هذا ما سنتناوله في بحث آخر .

☆ ☆ ☆

صدر حديثاً من وزارة الثقافة والارشاد القومي

أوربة التقنية

القسم الاول و القسم الثاني

تاليف
دافيد س. لاند

ترجمة
روزيت خوري

الواقع الاجتماعي

تاليف : هارفي فاربرمان ترجمة : ندرة اليازجي

اريك غود مراجعة : عبد المجيد نشواتي

الندوة الدولية

حول السكان والتنمية ولاهمية الرقم الاحصائي

باشراف الدكتور

عبد المالك الاخرس

الشعر الصهيوني والمستقبل

- هوية المكان المغترب في الشعر الاسرائيلي المعاصر
- الشعر الاسرائيلي والمستقبل
- شعر الرفض الصهيوني : الاحتجاج والمستقبل
- النزعة العنصرية : يهوذا عميحاي ، نموذجاً

صالح العيّاري
" تونس "

هوية المكان المغترب في الشعر الاسرائيلي المعاصر

صالح العياري
« تونس »

١

لقد حاول اليهود الصهاينة ان يعطوا لشعار الارض مضمونا يستمد قوته من التوراة والتلمود ، ومن اساطير الماضي ثم اهمية الارتباط بها ، وكيف ان الابتعاد عنها هو الذي جر اليهود الى المنفى ودفعهم الى المآسي ولقد كان الحل في نظرهم هو العودة اليها لاجل احياء العهد القديم وبعث الامة اليهودية من جديد ولهذا ظهرت الدعوة الى التغني بأرض اسرائيل وحب الطبيعة على يد العديد من الكتاب والشعراء قديمهم وحديثهم . ولكن مايهمنا في هذا السياق ، هو كيف تناول الشعراء الصهاينة المعاصرون الارض في اشعارهم ؟ .

ان صورة الارض في الشعر الاسرائيلي المعاصر تحمل هويات متناقضة مابين التغني بأرض الميعاد (أرض العسل والرياحين) ثم الخوف من هذه الارض ولعنة الوجود القاسي الذي تحويه ، وهذا هو مايميز الصورة المتناقضة للارض (المكان) في النص الشعري الصهيوني المعاصر . ويمكن ان نقسم هذه الصورة الى قسمين .

١ ــ صورة الارض كما نصت عليها التوراة وجسدها بعض الشعراء الصهاينة الذين لم يعيشوا في كنف الدولة الصهيونية .

٢ ــ صورة للارض المغتربة في النص الشعري الصهيوني وذلك كما عاشها وعبر عنها معظم الشعراء الذين عاشوا في عهد الكيان الصهيوني المحتل . وانطلاقا من هذه الثنائية لصورة الارض في النص الصهيوني المعاصر تتمحور المفارقة القائمة بين صورة الارض الموعودة كما جاءت في التوراة وبين صورتها كهوية معاشة ومغتربة اذ تبدو مثقلة بالعناصر الدالة على هوية المكان المغترب والمتحرك في القصيدة الصهيونية ويمكن ان نستقرىء في هذه الابيات مايحاول ان يثبت هذه الفكرة :

« لم تنفتح البوابة لاخي
يوم الغفران ...
بل راحت تنقفل
راحت تقفل ماضيه
على محاورها الثقيلة
وانا اجاهد لوقف حركة الحديد
وهي تطبق على اختي من كل صوب . »

ان هذه البوابة التي راحت تنقفل ثم تنقفل يوم الغفران على اخ الشاعر ليست في الواقع سوى الشعور المنعكس لوجود ذاتي مهزوز لاجذر له في المكان الذي يشعر فيه ، وهذا مايدل على نزعة اغترابية ،

وعدم شعور بالثقة المتبادلة بين الشعور الذاتي المنسجم ، وبين المكان كقاع ارضي لاستقرار الروح : وعلى هذا النحو يبدو المكان التوراتي المحمول هي الذهنية الصهيونية ــ لاحقة لوجوده الموضوعي . انه مكان الهويــة الذاتية الغائبة حسيا التي تذهب احيانا الى نفي ذاتها :

« لــن أكون أبدا
في المكان الذي لم اكن فيه .
والمكان الذي كنت فيه
لــم اكن فيه أبــدا . »
يتيه الشعب بعيدا عن المكان الذي ولد فيه . »

انــه وبهذا المعنى وكما ذكرنا سابقا يؤكد يهوذا عميحاي عــن حالة نفي للمكان الموضعي ، حيث يعلن عن نفي ذاتــه في كلا المكانين ، أولا : المكان الاول الذي لم يكن فيه ثم المكان الذي كان فيه .

ان هذا التقابل الصوري للمكانين يقابله بالضرورة شعور بالاغتراب المركب بين الذات المغتربة في عين المكان وبين المكان الاخر المحمولة فيه، وبالتاليف فان الشاعر يخلع عن ذاته جوهر الانسجام الروحي من خلال

الاغتراب المزدوج الاغتراب المزدوج (ذات / مكان) وحالة النفي الفردية المعاشة التي لم يستطع الكيان الصهيوني صهرهــا في بوتقة التوحــد الاجتماعي لكن كيف يمكن لكيان عدواني مركب ان يخلق ذاتا منصهرة وقادرة على التوحد والتمسك بمبدأ المثل العليا في الخير والعدالــة ؟ وهكذا فان الاغتراب الصهيوني يكمن في الاغتراب المزدوج للذاتــه ، هذا الاغتراب الذي ينتجه المجتمع الصهيوني لا يمكن ان نفصله عن المطلــق التاريخي الغيبي ؛ الذي شوه العقلانية الاخلاقية لليهودي الصهيوني المعاصر .

« الارض تتلوى
والرمال والهضاب تميد
في صلاة فزع
رب العالم ..
عجل بنهايــة الطريق . »

ان الشعور بالاغتراب عن هذه الارض الملتوية المعذبة . يبدو كحالة معممة . في كل النصوص الشعرية الصهيونية وهنا تظهر لنا ملامح المكان مفصولة الى حد بعيد عن روح الشاعر . حيث لاتستجيب ذاتـه الشاعرة الى الانفصـال الروحي في سبيل عذاب هـذه الارض ، وبالتالي فـان سلبية حياديـة هي التي باعدت بين هذا المكان وفرديـة الشاعر المغتربة، ويمكن ان نتابع مثل هذا الشعور في أبيات « هدفاه هركابي » حيث تعلن عن اغترابها في أرض لا تنتمي اليها بمشاعر الروح والثقافة فهي بعد ماخبرت المكان في العمق ، خرجت في النهاية الى العدم الذي لايمكن ان ترجع اليه وهنا كما قلنا سابقا يتمظهر الاغتراب كحالة مزدوجة تفني ذاتها مرتين، حين تشعر باغترابها عن المكان أولا ثم حين تنفصل عنه ثانيا.

« وانــا ...
لم يعد لي ماارجع اليه
لامدينة أبعث فيها حياتي
ولارقعة أرض
تدفني في مماتي .. »

ولكننا أحيانا مانصطـدم في الشعر الصهيوني المعاصر بالاغتراب المزيف ، اذ اننا نجد كثيرا من النصوص الصهيونية تنزع نحو تضخيم المعاناة الى درجة الاحساس بفظاعـة الكارثـة . ويفلت الاغتراب من حجمه الموضوعي الى حيز المبالغة الشكلية .

« بعيدا .... بعيدا ...
أرى .. مخاوف
واصوات حداد
وحطاما مخيفا
يعلو مـن الغابات
ويرسم اشباحا . »

من بعيد ... من مكان قصي لم ير الشاعر سوى حطاما مخيفا، يعلو من الغابات ويرسم أشباحا واصبح هذا المكان (الغابات) صورة مرعبة في رؤيته ولهذا فان حدة الاغتراب بهذا المكان تبدو على قـدر كبير من المشاعر الزائفة ، وهو على كل حال شعور بالكارثـة .

ومن هذا المنظور يتاكد لنا فشل الحركة الصهيونية في دعوتها الى ربط اليهودي الصهيوني بالارض على اساس ان هـذا الربط يمثل مرتكزا اساسيا من قواعد ما يسمى بالوطن القومي اليهودي . ولاجل تسخير الادب لأغراض الحركة الصهيونية . « وضعت هذه الحركة (وكل الذين انضموا تحت رايتها) نصب عينها هدف الهاب الشعور بضرورة العودة الى الطبيعة ؛ فكان ان لجأت الى تجنيد الادباء من شعراء وكتاب ومفكرين للترويج لهذه المقولة ثم الدعوة اليها وتحريض اليهودفي كل مكان على قبولها واعتناقها . »(١) لغايـة ربط هذا الشعور الرومانسي بالارض الموعودة . لقد تغنى الشعراء الصهاينة في الوطن المحتل بالكروم والزيتون ، وكافة مظاهر الطبيعة ، حيث كانت ثورة الحماس والشعري مترافقة مع نشوة الروح العسكرية الصهيونيـة إبـان انتصاراتهـا العدوانية في الارض المحتلة ولكن سرعان ماخبا هذ االحماس الشعري امام حدة المقاومة الفلسطينية ؛ وحل محله شعور مليء بالحيرة والتذمر

(١) مجلة العربي العدد ٣٠٦ مايـو ١٩٨٤ ص ـ ١٣٦

وبدأت مزاعم الصهيونية تكشف عن زيفها واضطرابها في ظل غياب وحدة الروح العليا التاريخية / الاجتماعية وفي خضم التناقضات التي أسفرت عنها الايديولوجية الصهيونية العنصرية ، تعقدت ظاهرة الاغتراب الصهيوني في علاقتها بالمكان المغترب وهكذا فقد اليهودي الصهيوني المعاصر جوهر الطبيعة العلائقية التي تربطه بالمكان (الارض) وهذا الجوهر المكاني المفقود هو الذي ضيع هوية المكان في المنظور الصهيوني وعممت وجوده في غياب المطلق الميثي .

« أصابك الكد قبل ان تفقد نضارتك
وعبرت الوادي المالح
حيث الارض التي تذوي
كل زهرة عليها وتسحق في الغد
ارض تأكل ابناءها
ارض تحرق بناتها
ارض هي صدر صحفها
وجوه حتى الأمس
تتنفس . »

ان ارضا يذوي فيها الزهر ، وتأكل اولادها ، لايمكن أن تكون أرضا بشرية ، ربما يشعر المواطن بالاضطهاد والالم في ارض ما ، ولكن ان تذهب هذه الارض الى اكل لحوم مواطنيها ، فهذا مالا يشعر به أي مواطن له احساس بالانتماء القوي الى التربة التي خلقته لان الارض عبارة عن الرحم الثاني الذي تكبر وتنضج فيه الروح البشرية . من هذا السياق تكتشف عمق العلاقة المهزوزة والمغتربة بين الارض والشاعر والا لما كانت مشاعره قد تجسدت بمثل حدة الاغتراب وضياع الانتماء. ولاجل مواجهة هذا الشعور بعدم الانتماء للارض التي كثيرا مانجدها قاسيا

مشتركا في اغلب النصوص الشعرية المعاصرة ما بعد تأسيس الكيان الصهيوني نجد يهوذا عميحاي يتصدى لانقاذ هوية الانتماء القومي اليهودي المزعوم في الاراضي العربية المحتلة من خلال التحريض على التمسك بالحقوق الزائفة المشروعة ، ولكنه لايفعل شيئا في عمق الواقع سوى تشوفه الحالم بأرض صهيون مكرسا بذلك نفس مقولة الاسطورة التوراتية في الرجوع الى الارض الموعودة . وامام دعوته القوية، لم يعبر في النهاية سوى عن هزيمته وشعوره المقترب عن أرض الاحلام الزائفة بالرغم من صلابة هذا التمسك الشعري بالوطن الحلم .

« هذا هو وطني ...
الذي يمكنني فيه أن احلم دون ان اسقط .
وان أرتكب اعمالا سيئة دون ان اضيع
وان أهمل امرأتي دون اصبح معزولا
وان أبكي دون خجل وان أخون واكذب .
دون ان اتعرض للهلاك ...
هذه هي الارض التي يسكن الاموات
تربتها ... »

ان كان شعراء مرحلة الاحياء القومي قد اوجدوا وشائج رومانسية مستمدة من تاريخ اليهود الثقافي والاسطوري الديني ، وحققوا من خلال ذلك ارتباطا ذهنيا غير معاش في الارض الموعودة ، فان هذه الوشائج نجدها قد فقدت ذاتها وخصائصها في الادب الصهيوني المعاصر ، بل على العكس من تلك الصورة المثالية القديمة ، فلقد اصبحت الآن مشحونة بآثار الشك والرعب والخوف والقلق . وهذا نموذج شعري لأحد شعراء مرحلة الاحياء القومي ، حيث يبين صلة الحنين بالوطن القومي كما جاء في التوراة ، اذ نلمس ملامح العلاقة الروحية بين المكان المتخيل والروح الحالمة بوجوده من خلال تدفق شعري ممسوس بشفافية رومانسية ،

وحول ذلك يقول يعقوب فيخمان (١٨٨١ ــ ١٩٥٨) في تصويره الحالم بأرض فلسطين :

« حينما كنت شابا اخذ قلبي بمشهد السهل
احببت اتساع أفقه الازرق
الذي تضرب وتضيع الشمس داخله .
كنت طفلا حينما احببت ان تطأ قدماي
عشب حقولها الندي
أن أشعر بسجادتها الخضراء النابتة . »

اننا لا نستطيع ان ننفي جمالية الشعر في هذه الابيات **وقوة بنائه اللفظي . كما** اننا وفي نفس اللحظة لا يمكن الحديث عن **المكان المغترب ،** ذلك كون هذا المكان لا يحمل صورة عيانية لوجوده الواقعي الخاص . انه بالاحرى يمثل فضاء حلميا محمولا في الذاكرة . وهو ايضا مكان مجرد لا يحمل هوية التوقعن الاجتماعية ، ولا هوية الفضاء المعاش . والآن لننظر في هذه الابيات الشعرية التي تصور الارض التي لم تعد موعودة ، انها ارض اخرى ليست هي ذاتها كما جاءت في التراث الديني اليهودي، فهي مغتربة يدور فيها الصمت والغموض :

« صامتون كلهم .. يلقون ظلالهم
على الـجدار ..
وعلى الحائط يرتعش القلق
يضطرب مع نفسه ...
وعبر النافذة يطل الاسى . »

ان مثل هذه الصيغ الشعرية المعبرة عن اغتراب الذات الصهيونية في فلسطين ، تمثل اليوم نموذجا شعريا سائدا بات يحمل المكان مهزوما بذاته كما اصبحت ترسمه المخيلة الصهيونية ، اي ان هذا المكان كهوية

شخصية أصبح يفتقد لعنصر الانسجام وديمومة الاستقرار النفسي ، وعلى هذا النحو فان الانسان عندما يكون مغتربا في وطن معروف ، محدد الوجود الثقافي والاجتماعي التاريخي ، فانه يغترب كانسان منتم روحيا لارضه ووطنه الحقيقي . أما اذا أخذنا شخصا مغتربا في مكان لا ينتمي اليه حضاريا وتاريخيا وثقافيا ، ولا يشعر بوجوده النسبي فيه على اقل تقدير ، فان هذا الشخص لا محالة يغترب في اللاهوية المكانية التراثية. الحضارية . ويصبح اغترابه اشكالية فردية لا مؤنسنة . تؤدي به احيانا الى دائرة الوجود المعدوم . وربما هذا الوهم الذي تصورته الحركة الصهيونية في بناء وطن قومي لليهود في وطن ليس لهم ، هو الذي قاد اليهودي الصهيوني الى ضياع نفسه في الشتات ، ولقد اخطات الصهيونية مرة اخرى عندما تصورت انه بمجرد الحصول على اية ارض بالقوة وبناء مجتمع . يحدل وجودها الخاص فهو قادر على مر الزمن ، تثبيت ركائز هذا المجتمع (هذا تصور الصهيونية) ومن ثم بناء الحضارة واكتساب التراث وهوية الوطن . ولكن نسيت هذه الحركة العدوانية ، بانه لا يمكن بناء حضارة بالقوة على حساب حضارة اخرى اصيلة في ارضها وخلق مجتمع في مقابل تهجير وتشتيت مجتمع آخر ينتمي للتاريخ والوطن الذي هو منه . ولأجل هذا السبب او ذاك ، فان ما حصدته الصهيونية من عدم استقرار ،وعجزها في تثبيت دعائم الهوية الوطنية ، هو الذي قاد افرادها الى محنة الشتات الروحي ، علما بان هذه الحركة امتلكت وسائل التطور العلمي والانتاج المادي والحضاري المعاصر ، من تكنولوجيا ، وصناعة أدمغة فنية واستيراد الاموال ، ولكن كل وسائل التطور العلمي التي في حوزتها ، لا تكفي لبناء الانسان كهوية تاريخية وثقافية نابعة من أسمى المثل العليا العظيمة ، ولذلك فان كل هذه المظاهر المتناقضة والمضطربة للشخصية الصهيونية المعاصرة ثم مع كل الاسس الخاطئة التي قامت عليها ، نجدها قد انعكست بوضوح في النصوص الشعرية الصهيونية وتجسدت بوتائر نفسية ؛ وثقافية جمالية تختلف من شاعر الى آخر ولعل من اخطر هذه المتناقضات التي عبرت عنها العديد من القصائد الشعرية الصهيونية المعاصرة ، هو التأكيد على الشعور بالقلق

الحاد وعدم الثقة بالمستقبل الصهيوني ؛ واهتزاز سيكولوجيا المكان في العقلية الصهيونية المعاصرة . وهذا هو ما سنحاول أن نقدمه من خلال النصوص الشعرية التي كتبت في هذه السنوات الاخيرة المتاخرة . ان الأدب هو المرآة الصافية التي تعكس الاشياء على حقيقتها ، وما عكسته هذه المرآة . يمكن ان نستدل عليه في معنى هـذه الابيات « لإيتسيك مانجـز » :

« أما الثاني فيهيل على رأسه التراب .
والدمار ويصرخ في غضب :
« على العنف قام عرشك ...
ومصيره أن يسقط بالعنف ..
رداء مملكتك ملوث بالدم ..
وسيلوثه دمه أيضا .. »

ان هذا الموقف الهستيري ، أصبح من الاصوات المألوفة في العديـد من النصوص الشعرية الصهيونية المعاصرة ، فهي تعبر عن أزمة الفرد الصهيوني في العرش الذي بنته عن طريق العنف ، وبالتالي فان هـذه القصيدة قد تحولت الى كارثة ضد الشعر الحقيقي ، وهي تسجل في النهاية سقوطها الجدالي الخاص في مستنقع اللاهن :

ان الصهيوني سوف يظل فريسة للمخاوف وفاقد لجمالية المكان ، طالما انه يعيش ويعمل في مجتمع قام أصلا على تغذية النزعة الاستعمارية والعدوان . كمـا سـيظل انتاجـه مرتبطـا ومحكوما بأخلاقيات وآلية الايديولوجية الصهيونيـة ، ذلك اذا لم يستطع هذا الكائن أو غيره من الافراد اليهود مضادة الفكر الصهيوني والعمل على احلال اخلاق العـدل والكرامة والحق ؛ والا فلا سلام للصهيونية ودعاتها ولا خلاص ينقذهـا مهما طال زمن احتلالها وعدوانيتها :

« ربـــاه !
من نوافذك .. تشهد آلام الخلاص
كثيفة مكثفة .
ونحن .. بين مرور معجزة واختها
نحصي موتانا .. وقلوبنا تسال .
الـــى متـــى ..
الى متى يظل يومنا المامول
على دمانا يسير . »

لن ياتي هذ اليوم المامول ، او يتحقق حلم اليهودي كانسان ، الا بانحدار الصهيونية ، واحلال مملكة العدل وشرعية الحقوق للشعب العربي الفلسطيني الذي شردته ، وهي تحاول أن تقضي عليه الى الابد .

– ٢ –

• الشعـــــر الإســـــرائيلي والمستقبل

لقد قامت اسرائيل كما قلنا منذ بداية الموضوع على اساس استعماري صرف ، ولم تكن المسالة الدينية اليهودية واسطورة ارض الميعاد سوى حجة مقصودة لتحقيق غاية استيطانها الاستعماري في المنطقـة العربية وتم الاختيار على احتلال فلسطين كوطن قومي لليهود في مرحلة كانت فيها الامة العربية ترزح تحت سلطة الاستعمار . وبدات في فلسطين منذ سنة ١٩٤٨ مسلسلات القتل والتشريد ، واغتصاب الاراضي من اصحابها بواسطة الاكراه ، والاغراء المالي ، وفي هذ السياق لا يستطيع المرء ان ينسى مجازر دير ياسين وكفر قاسم ، والسموع التي ذهب ضحيتها شيوخ واطفال . وعلى ركام العظام الشهيدة واحتلال تراب فلسطين ، تم انشاء الكيان الصهيوني الذي صار بناء ، بواسطة المساعدات ودعم البلدان

الاستعمارية آنذاك (انجلترا ، فرنسا ، وامريكا) . وبدأت الهجرات اليهودية الاوربية تتوالى على اصوات الرصاص وقتل الفلسطينيين وانتزاع اراضيهم بالقوة الى ان تم تأسيس دولة ومؤسسات اجتماعية للكيان الصهيوني . ولكن ومع نشوء هذا المجتمع المكون من اجناس الشتات ، تفجرت المشاكل السياسية والعرقية بين يهود الشرق ويهود الغرب ، اضافة الى المقاومة الفلسطينية المدافعة عن حقها وكرامة ارضها المغتصبة ، واشتدت التناحرات الاجتماعية وبذلك ازدادت قوة السلاح ، واصبح الصهاينة يشترون السلاح على حساب كل شيء ، كما بات المجتمع الصهيوني عبارة عن ثكنة عسكرية كبيرة وافراده كلهم جنود في هذه الثكنة .

اهتزت الاحلام اليهودية الصهيونية الخاصة بالارض الموعودة وتخلخلت اعماق هذه الحلم ، بل انه تراجع كثيرا بالنسبة الى ما كان عليه في زمن مرحلة الاحياء القومي ، وبدأت محاسبة الذات اليهودية ، ومراجعة بعض القضايا الصهيونية ، او بالاحرى بدأ الشك في المسألة الصهيونية ومستقبلها من طرف اليهود الصهاينة انفسهم ، ثم ايضا امام الامتدادات العالمية والاعتراف بالحقوق الفلسطينية المشروعة ازدادت مشاكل الحركة الصهيونية حدة وتعقيدا : التي لم تر بدآ في تصعيد العنف والقمع ضد الفلسطينيين وبناء المستوطنات . ولكن بالرغم من التحصينات التي اتخذتها الصهيونية ضد تفاقم مشاكلها الداخلية والخارجية فان الهجرة الصهيونية من الداخل عرفت ازديادا ملحوظا مقارنة بالسنوات الاولى للهجرة الى فلسطين ، فظهرت لليهودي المهاجر ، حقيقة الاوضاع في اسرائيل ، لقد بخرت الصهيونية احلامهم بجنة الارض التي صورتها لهم الدعاية الصهيونية ، ولم يجدو الا مجتمعا عسكريا مسيجا بالخوف والبنادق والاموات . واخيرا فاننا نجد بأن كل هذه الظواهر المختلفة قد انعكست على الادب الصهيوني المعاصر وشوهت اغلب مضامينه ، ولم تجد الصهيونية بدا آخر لتكثيف حملات وجودها وتسعى الى خلق مؤسسات جديدة امام انقسام مؤسساتها على نفسها وامام المستقبل الذي بات يهدد كيانها ، عمدت الدولة الصهيونية الى تنشئة اجيال خاصة

تتلقى عموما ومستوى من التربية اليهودية الصهيونية الصارمة ، حيث تلقن العداوة العنصرية والموت في سبيل اسرائيل كفن ونظرية داعمة لنظرية الصهيونية السياسية . ولقد اطلقت تسمية « الصابرا » على الاجيال اليهودية الصهيونية التي نشأت في فلسطين . وهي تحوير طفيف لكلمة « تزبار » في العبرية التي تعني « صبار » في العربية ان جيل الصابرا حسب الزعم الصهيوني لا يعرف الخوف أو الضعف أو النوم ، او الشعور بأنه قد اخطأ في اي من اعماله . وبالتالي فان هذه الشخصية (الصابرا) شبيهة « بالربوت » الذي لا يستجيب سوى لقوانين آلية ميكانيكية . ان الوحشية والبربرية العدوانية المعاصرة تجاه الآخر لهي سمات خاصة تكونت عليها اجيال « الصابرا » ومن هذا الاساس نستنتج : « أن استغراق الصابرا في اعتبار العهد القديم تاريخا لليهود، امر مفهوم ، انه يزودهم بحس الانتماء الى شعب قديم يعرفون حياتهم . . بحياته وان الايمان بهذه الرابطة راسخ ، وهو يرسخ فيهم شوفينيتهم وعرقيتهم . »(١) وهكذا فان الواجب الذي اوكل تحديدا الى جيل « الصابرا » صبيحة تأسيس دولة الكيان الاسرائيلي ، كان تغذية الروح العنصرية والشوفينية لاجل القيام بتثقيف اليهود الوافدين باديولوجيا الصهيونية بفكرها وثقافتها اليهودية التقليدية . وفي الواقع فان هذه التربية قد اثرت في الجيل أو الجيلين اللذين ترعرعا في كنف المجتمع الصهيوني ، مما اثر ذلك في العديد من النصوص الادبية التي تلقى بعض مبدعيها تربية « الصابرا » المشبعة بروح العرقية والنزعة العنصرية والثقافة المزدوجة والتي اصبحت بدورها تحرك قوانين النص الادبي وتذهب احيانا الى حد العدمية والتطرف خاصة في معظم نصوص الادباء الصهاينة المتطرفين . او الذين يمثلون الادب الرسمي للحركة الصهيونية السياسية ، حيث نجد مثلا العديد من الشعراء والادباء الصهاينة يحملون رتبا عسكرية ويعملون بشكل مباشر في جيش العدو . وبصورة اخرى فانه في اسرائيل اليوم لا يمكن ان نتحدث عن ادب مميز الهوية والاتجاه

(١) الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية ص ١٢٨ د. هاني الراهب .

اذا لم ناخذ في الحسبان النزعات السياسية الصهيونية المختلفة ، ثم ثقافات جماعات الشتات اللاقومية العنصرية التي ينتمي اليها هذا الادب وفي هذا المقام يمكن ان نكرر مرة اخرى مقولة يهوذا عميحاي التي تقول ، بأن كل ما يكتبه الصهاينة لا يتعدى حدود التعبير عن السياسة ، ومن هذا المنطلق فان هذا الراي يعكس بوضوح مدى التداخل المعقد بين الفن والسياسة في اسرائيل ، فهما وجهان لعملة واحدة . والآن سنحاول تناول احدى الاتجاهات الشعرية العنصرية المتطرفة ، وهو يمثل احدى واجهات اليمين واليمين الصهيوني المتطرف ، في مقدمة هذا الاتجاه تأتي مثلا « نعمي شيمر » وايتان ، ايتان وغيرهم كأبرز ممثلين لتجسيد النزعة العنصرية في الشعر الاسرائيلي المعاصر . ويمكن ان نتابع هذه القراءة في هذه القصيدة الاغنية للشاعرة « نعمي شيمر » التي تدعو بصراحة الى تثبيت الكيان الصهيوني تحت راية السلام كما تراه الدولة والسياسة الصهيونية :

«ربما غدا سنبحر في سفن
من ساحل ايلات حتى ساحل العاج
وعلى المدمرات القديمة
سيشحن البرتقال .
ربما بكل الممرات الضيقة غدا
سيسوق ضيفم قطيع اغنام
ربما بألف مدقة غدا
ستدق أجراس العيد . »

من الملفت للنظر حقا ، كيف تستطيع شاعرة صهيونية متطرفة ان تدعو للسلام وتستعمل المدمرات (رمز القتل) كآلية مدنية لشحن البرتقال . علما بأنها في العديد من قصائدها الشعرية كانت داعية متقدمة في الحركة الصهيونية السياسية ومناصرة للمذابح صبرا وشاتيلا وابادة

الفلسطينيين . وفي هذا الاطار فان الدعاء لهذا السلام لا يمكن ان تستجيب له روح الفن والعدالة . هذا الشعور بالسلام الطالع من بؤرة نفس عدوانية وعنصرية ولهذا فان مثل « نعمي شيمر » الصهيونية لن تستطيع فهم السلام الحقيقي طالما أنها ترى في بيغن وشارون وقوة جيش الدفاع الصهيوني خلاصة مثلها الاعلى ، ولأجل ذلك فانها فجأة تحملها النفس السوداء على ارتكاب البغضاء فتستسلم لها . ثم كثيراً ما تتوارى اغنية السلام المزعوم بين غيوم الكراهية والحقد على الشعب الفلسطيني وتشويه المتحالفين معها من الخونة العرب ــ وفي هذه القصيدة تظهر لؤم اليهودي الخاص بشكل مقرف .

« ماذا علينا ؟
ليذبحوا بعضهم !!
ليذبح احدهم اخاه
هذا ما قاله الجنرال روفائيل ايتان
وهو يتحدث عن الحرب العراقية الايرانية !!
لقد قالها بيغن ذات يوم
كلابا تقتل كلابا
فلماذا نتدخل نحن ؟
ولماذا لا نكون سعداء !!
العرب سيظلون هم العرب
وما حدث في بيروت
كان سيحدث لنا حتما
لو أن العرب كانوا
هم المنتصرون .
حلفاؤنا الكتائبيون

لم يتعلموا شيئا
لم يتعلموا فعقولهم مقفلة
ولهذا يحق لنا القاء تحالفنا
مع جهلة لا يتقنون الدرس »(١)

أي بالة واشراق روح شعري يمكن ان تشع به هذه الابيات : فيا لخسارة الشعر الذي سكنت بين صوره رموز القتلة الوحشيين مثل بيغن ورفائيل ايتان . أفليس هذا السقوط واضحا في هذه الابيات ؟ سقوط بكرامة الروح والشعر مما حتى درجة النفي الجمالي والفني . ثم وبمثل هذه الصراحة الوقحة تعبر الشاعرة بوضوح عن كرهها للعرب وتظهر عن نفس مريضة يبدو أنها غير قادرة على الصعود الى فضاء الاشراقات الكونية الارحب . ان كل المضمون الذي عبرت عنه القصيدة ينبىء بافلاس حقيقي بات يهدد زيف الكيان الصهيوني ويعبر عن شكل اللاأفق الذي تجسد في العديد من النصوص الادبية العنصرية :

فأي بيت مثل هذا الذي يجسد موتا حقيقيا لمعنى القصيدة وجماليتها الانسانية يمكن ان يكون بيتا ذا قيمة شعرية .

« العرب سيظلون هم العرب »

ان شعرا كما تعبر عنه هذه القصيدة ، هو اللاشعر عينه ، لان القصيدة الفن هي اكثر بعدية معرفية من اي خطاب سياسي يعبر عن ذاته بفجاجة وفقر في خطاب الروح الفني ، ان القصيدة الفن هي التسامي المطلق ومستودع القيم الجمالية ، وفي النهاية فان الشعر في هذه القصيدة يسقط حتما في مستنقع اللاشعر ، ولا يسجل اية قيمة فنية ومعرفية للقصيدة . وفي هذا المسار نقدم للاخوة القراء هذا الخطاب

---

(١) عن ملحق معاريف ـ ترجمة خليل السواحري ـ ٢٢ ـ ٩ ـ ١٩٨٢ .

الشعري المفعم بروح العداوة والحامل لكارثة الروح البشري عندما يصاب بالتفسخ والكراهية :

يا اطفال صور وصيدا
اني اتهمكم ... العنكم
لانكـم مخربون ...
ارهابيون صغار ...
لو انكم تلاميذ مجتهدون
تذهبون الى المدارس .
لو ان لكم شفاها صغيرة تبتسم وترد بالشكر .
لقدمت الهدايا
وقوالب شكولا وهدايا جميلة :
لكنكـم مخربون
ارهابيون صغـار
تحملون الآربي جي
بدل الحقائب والكتب
أطفال صور وصيدا
اني ... اتهمكم ... العنكم
ستنامون محطمي العظام
في الحقول ، في الطرقات
لا تسألوا لمـاذا
فانـه العقـاب
والآن حان عقابكم »(١)

(١) عن ملحق معاريف الاسرائيلية . ١٥ حزيران ١٩٨٢ ـ ترجمة خليل السواحري .

لست ادري كيف يبدأ المرء نقد هذه القصيدة أمام هذا الرعب الذي يخاطبنا ويخاطب الاطفال اعز ما امتلك الوجود بمثل هذه اللغة الهمجية ؟

ولكن اي أطفال يخاطبهم الشاعر ؟ ونحن هنا سنريحه من عناء البحث عن الجواب ، لانه حتما يعرفهم ، ويعرف السبب الذي حملوا من اجله الاربجي وهم في عز عهد الطفولة . فيا للعار اذا حينما يتجرا شاعر ويدين ابناء المخيمات ، من الفلسطينيين واللبنانيين ، الذين هبوا لانقاذ الوطن ، ثم ليسال هذا الشاعر نفسه ؟ ما هو الذنب الذي اقترفه هؤلاء الاطفال في حق الشاعر ؟ ثم ما هو الدافع الذي ادى به الى الحقد عليهم بمثل هذه الصورة الجهنمية ، كنا نود ان نناقش الشاعر في شكل وموضوع قصيدته . فننصفها اذا كانت شعرا انسانيا ، ونقف منها موقف الضد اذا كانت داعية لروح الشر . ان الاخلاق واحكامها الصارمة عادة ما تضر بالنقد الفني الموضوعي ، حيث تؤثر على قيمته احيانا . وتتضخم الاخلاقية الذاتية التي تنعكس في النص المنقود ، ونحن نعرف ايضا بأن الحكم الاخلاقي معرض دائما للاهواء النفسية الجامحة . سواء كانت في لحظة انفعال غاضب او سار ، وبالتالي فان التعامل مع الفعل الاخلاقي في العمل الفني يتطلب انتباها دقيقا . واذا كنا في هذه الابيات قد أسقطنا بعض حكم القيمة الاخلاقية عليها ، فان هذا ما فرضه علينا الشاعر نفسه حين اهمل الفن في قصيدته وتشبث بأفعال القبح والكراهية . اننا لم نكن متشنجين تجاه قصيدته هذه ولسنا حقودين على مثل هذه التفاهة الشعرية التي بين ايدينا ، لاننا نحاول ان نحتل مراتب السمو والتفوق على الشر ودوافعه ، ونمنع انفسنا من قتل الحقيقة وتشويه معابد الخير . لقد كتب هذا الشاعر هذه القصيدة من موقع العقلية الصهيونية حاقدا على اطفال الجنوب ، وكأنه قد قام بكتابة ملحمة شعرية . بل على العكس من ذلك فقد ألف الحقد واضاع

الشعر . انها باختصار قصيدة ساقطة والنقد الادبي بعيد بلغته الجميلة عن مثل هذا الخواء الشعري القابع في الروح المريض ، حتى وان كان مثل هذا الشعر الذي كتبه « سيدوم » مكلل بالف غار من ذهب الخيال :

« اني اتهمكم .. العنكم
ستنامون محطمي العظـام
في الحقول في الطرقات »

يا لهذا الظلم الذي البسه الشاعر باسم جمالية ومكانة الشعر ، انه يريد ان يحارب اطفالا صغارا في بلادهم ويقتلهم كالكلاب . ان دراغول بفاته وكل مصاصي الدماء الذين تعرضهم شاشات السينما لا يمكن ان يمارسوا هذا التهور الحاقد . ومن هذا الموقع فان الشاعر « سيدوم » لا يختلف في موقفه العدائي عن زعماء العصابات الصهيونية . ان هذا الشعر الذي ينفث سما وسوداوية حالكة ليس من الشعر في شيء فهو خال وساقط ومنفي عن الاشراق ، الحب ، ورقص الروح المبدع :

« كل النساء في صيدا وصور
كل الامهات ... كل الحوامل
كل المسنين ... وكل الارامل
ها نحن قادمون لنعاقبكم
لنقتص منكم .
فرجالكم مخربون عساد
وابناؤكم صادوا دبابات
ومجنزرات »(١)

(١) عن ملحق معاريف الاسرائيلية . ترجمة خليل السواحري .

ان مثل هذا الشعر الذي نما في زمن الصهيونية الخاص ، يمثل صيرورة اللافن والذوق الحسي الجمالي المتدني ، بحيث لا تقودك الصورة الى تتبع سياقات « الجميل » او « الشعري » الذي يفضي الى هدف القصيدة وموضوعها . وبالتالي يروّض الروح الفردي ويحمله الى الافاق الخضر ؛ وباختصار فاننا نصل الى ان فمل « الجمالية » كقيمة عليا في النص الادبي تمثل الشرط الغائب او المنفي في نفسية المبدع اليهودي الصهيوني التي نمت صهيونيا . ولعل هذه الابيات التالية مثال بارز يؤكد هذه الملاحظة ، حيث نلمس هذه السادية الروحية كسمة خاصة للصهيونية النموذج :

« نامت الطفلة الصغيرة
ذات الرداء الاحمر
بلون الدماء التي تسيل .
من جسمها النحيل الصغير .
وتسالني لماذا ؟ ...
لو لم يكن والدك مخربا عنيدا .
وشقيقك اللعين
صياد دبابات / مجنزرات
لاحببتك يا طفلتي الصغيرة » .

لقد صادفنا الكثير من الشعر الصهيوني الذي يعبر بمثل هذه اللغة السطحية وذات المضامين العدوانية لذلك سوف لا نستغرب الامر . فالكيان الصهيوني هو الذي يفرز هذا الشعر ، علما بأن الدولة بايديولوجيتها وتربيتها العنصرية وبقوة جيشها ، هي التي تسعى دائما الى تمجيد الرعب والقتل كمثل اعلى للحفاظ على الكيان الصهيوني المحتل للاراضي العربية ، وبصورة ثانية فان المجال يصبح ضيقا للحديث عن شعر انساني اذا ما وقع في مثل هذا الوجود الزائف . ان المتتبع للفن

والادب الصهيوني منذ حرب ١٩٦٧ الى حرب ١٩٨٢ في بيروت . يلاحظ بعمق شكل التدهور الروحي الهابط بالذات الصهيونية نحو مصير مجهول خاصة بعد حرب تشرين سنة ١٩٧٣ التي تلاها انكسار في الطموح الصهيوني فاهتزت الصورة القديمة للبطل اليهودي الذي لا يقهر . وكانت ظاهرة الاحزان « الموضعية » أحد سمات التقهقر الذاتي التي صبغت الادب والفن بعد انتهاء الحرب مباشرة . وها هي هذه الذات الصهيونية تزداد تقهقرا ، حيث نلاحظ انشطارا خفيا للرؤية والتفكير الصهيونيين . ما بعد حرب لبنان ١٩٨٢ وربما نستنتج ذلك من النصوص الادبية الاخيرة التي وصفت الحرب . وهذه القصيدة « هكذا كان الوضع في راس السنة العبرية » للشاعر الصهيوني « ابشلوم كور » تجسد التقهقر والاسفاف بموضوعات الشعر :

« اخذت منظمة التحرير مئات
الآلاف من الرهائن
وفي بيروت الغربية
والعالم الجبان يصرخ :
انقذوا الخاطفين

* * *

حافظوا على الشيكل
هذا ما قاله إريدور
فسوف تحتاجونه للمشتريات
في بيروت

* * *

هناك في جنوب لبنان
يهتفون لشارون وبيغن

لاننا نحن الاسرائيليين
نكـره بعمـق
أولئك الذين رفعـوا
لـواء المقاومـة(١)

لست أدري اذا كان للشعر نصيب في هـذه الابيات التي يخلـو خطابهـا من أية قيمة فنيـة متعالية « ونحن طبعا نقراها في لغتنـا العربيـة ــ ترجمة » فلا قداسة للفظـة ولا طقسا تعبيريا تنبىء به هذه الابيات المذكورة سواء التاكيد على عنصرية خطابية لغوية مباشرة تحمل حقدها على منظمة التحرير الفلسطينية . وعلى المقاتلين الفلسطينيين . والترويج « للشكل » . هذا الخطاب اللغوي الخالي من ضرورة الفن المعرفية والاستيطيقية . يمثل فضيحة لهذه القصيدة وصاحبها . الذي يبدو انه يجهل ضرورة الفن ووظيفته التي « هي دائما تحرك الانسان بكليته وتسمح للـ « انا » بالتماثل لحياة الاخرين ، وتمكنها مما لم تكنه ، ومما هي جديرة بان تكونه ، والفن يسمح للانسان بان يفهم الواقع . وهو لا يساعده على تحمل هذا الواقع فحسب . بل يزيده تصميما على جعله اكثر انسانية واكثر جدارة بالجنس البشري . »(٢) ولكن هيهات أن تستجيب الثقافة الصهيونية المعاصرة لمثل هذا الدور وترتقي الى دور الحقائق الانسانية العليا . ان الشاعر الصهيوني المتطرف . وكاتب الرواية . وعالم الاجتماع . والسياسي الخ .. كلهم يمتهنون اليوم لغة واحدة مستمدة من نظرية ــ ا ــ ب ــ الصهيونية السياسية . وبالتالي فان الروح المبدع الحقيقي . هو منفي بالضرورة في الكثير من التجارب الادبية . أو بالاحرى فهو يتلاشى في التناقضات ويفقد هوية التمايز في النص الادبي المتحرك . وحول هـذه الفكرة نقول

(١) عن ملحق معاريف الاسبوعة ١٣ ايلول ١٩٨٢ . ترجمة خليل السواحري ــ المرأي العام الاردنيـة .

(٢) ضرورة الفن ص ــ ٥٦ ــ ارنست فيشر ــ ترجمة د. ميشال سليمان .

بأن الفن الذي لا يستطيع ان يتعالى عن الرذيلة ، ويسمو الى فضاء الفضيلة سيظل فنا دون مستوى الخلود وصفاء الخلق ، في هذه القصيدة التي سنقدم أبياتها بعد قليل للشاعر « يوناثان غيفن » بعنوان « دماء صبرا وشاتيلا » دلالة كافية لكشف تدني الشعر حينما يصف بشاعة المجزرة الرهيبة بأسلوب بارد ومتحيز الى الجريمة ، التي ذهب ضحيتها الاطفال ، والشيوخ والنساء ، تلك المجزرة التي لا يستطيع اي عقل بشري ان يقف تجاهها موقف المتفرج ، ان مجزرة صبرا وشاتيلا هي رمز لاسطورة الفعل الوحشي والسلوك البربري الذي لم ترتق اليه اية صور اخرى لوحشية الحروب السابقة . اقرأوا معنا هذه الابيات وقولوا الحقيقة عن هذا الشعر الذي لا يفضي للشعر :

« هناك في مقهى بكريات شمونة
كان جمهور غفير يجلس امام
الشاشة الصغيرة
عن الاسرى الفلسطينيين .
صرخ الجمهور وصرخت أنا ايضا
ابتهاجا بالحشد الجميل ،
حيث الارهابيون
قتلة اطفال معالوت
في طريقهم الى المعتقل !!
اقتلوهم صرخ أحدهم
صرخنا جميعا !!
احصدوهم ... اذبحوهم .... اقتلوهم
نريد ان نرى
دماء من قتلوا اطفال معالوت !

في « صبرا وشاتيلا »
شاهدت دماء كثيرة
فارتاحت نفسي وارتاح اطفال معالوت
في قبورهم »(١) .

يا لسخرية وفظاعة القدر حين يصيب شعرا مثل هذا بمرض روحي وبؤس نفس مغلقة على ذاتها او مغلقة على السواد ، عندئذ يتشوه كل شيء ويخرب الروح البشري بسرعة . ان هذه النشرة الاخبارية التي عبر عنها الشاعر في قالب شعري . نجد من الصعوبة ان نقراها بلغة النقد وبوظيفته ، وبموجز العبارة فان النقد الادبي البناء لا يمكن أن يستمد جماليته وجدواه من الفن / الفراغ او الفن الاسود المليء بتصوير الخوف والرعب ، وعلى حد تعبير « تين » عندما يسد الكاتب كل المنافذ ، ويسجن القارىء ضمن نوافذ مغلقة في قصة أو قصيدة فريدة وجها لوجه مع وحش او مجنون او مريض ، فان هذا القارىء يقع فريسة الهلع وغالبا ما يصاب بالغثيان . وان كانت عبارة « تين » ترفض اسلوب الفن المغلق وتدعو الى السمو . فان ادب الصهيونية يعمل بعكس المقولة فهو ادب مفعم بروح قاتمة ، ونفس سوداوية . تفهم الكراهية اكثر مما تفهم حب الاخرين ، وهنا نستشهد براي للكراهية والبغضاء يقدمه الكاتب الصهيوني « عوز عاموز » .

« ان العربي يهدد الكيان الصهيوني انطلاقا من أفكار بدائية وبلا سبب أو منطق ، وان من الضروري ان يستمد اليهود لدحر العرب في عقر دارهم بصفتهم — اي اليهود — امة متحضرة تصارع امة متخلفة كما في رواية في « مكان ما » وهذا عين ما يسعى اليه كل الصهاينة لاجل سحق الشعب الفلسطيني ، وتأكيد الوجود الصهيوني كمشروع مطلق في المكان والزمان :

(١) ملحق يديعوت احرونوت ٢٢ — ١٠ — ١٩٨٢ . ترجمة خليل السواحري .

« اطردوا كل الخونة
من البلاد اليهودية
لا نريد هنـا
الا كل صهيوني حقيقي
يصرخ امـام المـلأ
يهودا والسامرة لنـا
وانتم سكان يهودا والسامرة
اجلسوا بصمت ، بهدوء
وقولـوا شـكرا
لانكـم لم ترحلوا بعـد
الى ما وراء البحار »(١) .

هل يجد المرء صراحة تدعو الى الاستيطان الصهيوني اكثر من هذه الصراحة المتضمنة في هذه الابيات ، وهي تتجلى بروح بربرية :

« لا نريد هنـا
الا كل صهيوني حقيقي » .

ومثل هـذا الشعر يعتبر اليوم جزءا من الادب المجنـد للمسألة الصهيونية باهدافها التوسعية ، ثم زرع يهود العالم في ارض فلسطين ، وهذا الكاتب الصهيوني اهارون « ميجيد » يتحدث عن دور الادب في مواجهة التحديات المفروضة ضد الكيان الصهيوني معبرا كالتالي :

ان المجتمع الاسرائيلي الحالي لم يرتق الى آمال الرواد الاوائل ولم يترجم احلامهم الى حقيقة ، وان الحرب في رأيه قد جلبت الحياة في المستعمرات والاستيطان هو واجب الاسرائيلي الاول وان من يبتعـد عن « الكيبوتس » لن يكون مصيره سوى الضياع وفقدان الشخصية .

(١) ملحق يديعوت احرونوت ، ترجمة خليل السواحري ٢٢ — ١٠ — ١٩٨٠ .

لكن الخطير في الامر وهو ان مثل هذا الزيف الذي يروج له بعض الكتاب الصهاينة ، يجد صدى قويا في اوساط الاعلام الغربي خاصة ، وهكذا نجد اليوم صدى للاداب الصهيونية واستحسانا لموضوعاتها بكل ما تحمله من قيم شريرة ، احتجاجية وعنصرية . وذلك بمعزل عن رؤى النقد الموضوعية التي لا تستطيع ابطال مفعول الالغام المحيطة بها ، فهي هذا « الممنوع » الذي يمنع اكتشافه من قبل الغربيين . وان هذا « الممنوع » يشكل احد مراكز القوة لاستمرار الصهيونية السياسية وتفوقها اعلاميا .

ولعل مثل هـذه القصة تعتبر خارج اسـرائيل نموذجا متقدما للادب الصهيوني في نظر المتعاطفين مع اسرائيل . اذ نجد في قصة « امـراة صغيرة » « لاسحاق اورباز » حين يصور الارض الفلسطينية صحراء وان من عليها من البشر ليسوا سوى اشباحا مزعجة (المقصود بالاشباح هم العرب) . وان الوجود الحقيقي وجوده هو وامراته التي يرمز بهـا الى اسرائيل ، والتي يطمح ان يولدها حتى تملأ الارض بنسلها ، وهناك قصص اخرى ، وقصص للاطفال واشعار متنوعة كلها تصب في موضوع تمجيد القوة الاسرائيلية التي لا تقهر ، ولكن برغم هذه القوة الخفية تكمن الحقيقة الفعلية لمنطق الهزيمة :

« لكم اكرهها هذه القلعة الصماء
فوق حجارتها سالت دماؤنا ســدى
ارجوكـم
اذكروا اعلانات الحـداد
اذكروا الدبابات والمواقع
وكل الرجال الذين سقطوا
الرائد جوني « هرنيك »
الذي سقط هو ومن كانوا معه
من أجل احتلال الشقيف » (١) .

(١) عن ملحق عل همشمار ١١ ــ ٦ ــ ١٩٨٢ ترجمة خليل السواحري .

- ٣ -

• شعر الرفض الصهيوني : الاحتجاج والمستقبل

كما قلنا في الفقرة السابقة ، بعد حرب تشرين التحريرية التي هزت الكيان الصهيوني ، وخلخلت ، ركائزه ، اشتدت حدة الصراعات الداخلية والسياسية والطائفية ، حيث ظهرت على السطح تقسيمات عرقية ، وتكتلات سياسية واجتماعية تناحرية ، قد زادت في الواقع من تعميق تناقضات هذا الكيان التي نشأت بالاصل مع نشأة وجوده ، فاليهود الغربيون مثلا يعتبرون أنفسهم يهود الحضارة والتقدم ، اذ من حقهم الخاص الحصول والتحكم في الامتيازات المادية الطبقية . وان اليهود الشرقيين ليسوا في نظرهم سوى قطيعا من اليهود المتخلفين . وفي ظل هـذه الهزة العميقة سقطت قصة الحق والعدالة في الارض الموعودة ! وتكشف حقائق الوجود الصهيوني في العراء . وامام هذا السقوط بدأت هجرة يهودية معاكسة . حيث تأتي قصة الهجرة المعاكسة ليهود الاتحاد السوفيتي ، كأكبر مثال على خطورة الاوضاع الصهيونية من الداخل . هؤلاء اليهـود الروس الذين وقعوا تحت اغراء الدعاية الصهيونية ، نجدهم وقـد اكتشفوا الحقيقة بعدما استقروا عدة شهور في الارض العربية المحتلة . ومن خلال ممارسات السلطة الصهيونية تجاه مواطنيها المختلفي الهويات بشكل خال من الديموقراطية الحقيقية اجتماعيا وطبقيا ، تفطن اليهود الروس الى غلطتهم التي ارتكبوها حين هاجروا من موطنهم الاصلي حيث تسود العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص ولعل الجحيم الذي وصفوه في مقابلاتهم مع الكاتب الصحفي « فرديناد فريدمان » هجرة اليهود مـن الاتحاد السوفيتي » يجسد العذابات التي عانوا منهـا في اسـرائيل ، اضافة الى قلقهم وشعورهم بلا هوية مستقبلهم ، كل هذه العوامل جعلتهم يغادرون الكيان الصهيوني الى بقاع اخرى ، بل ان بعضا منهـم طلب الصفح والغفران لدى السلطات الروسية لاجل السماح لهم بالدخول

مجددا الى الوطن الام وبسبب عوامل داخلية في اسرائيل ومنها الخارجية اشتدت ظاهرة الرفض والاحتجاج لدى بعض القطاعات اليهودية التي كانت في البداية لا اهمية تذكر لها . لكن اتسعت دائرتها اخيرا بفعل الحرب الاسرائيلية ــ العربية الاخيرة التي دارت رحاها في لبنان . وقد ظهر هذا الاحتجاج في العديد من الادبيات اليهوية لكتاب وشعراء تقدميين. ونحن اذا كنا نقف بحذر تجاه تيار الرفض المناوىء لسياسة الصهيونية ، ذلك لان هذا التيار ما يزال متشابكا في نواحي معينة مع الاخطبوط الصهيوني ، بل قل انه يلتقي مع هذا الكيان في نقاط معينة تتعلق بوجوده الاستيطاني ، وبالتالي فهو لم يشكل قوة ضاربة لمنع او تحجيم الممارسات الاجرامية التي تمارسها اسرائيل ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني .

واذا كانت تجربة الاحزاب « الموضعية » قد جسدت موقفا سلبيا تجاه الحروب العدوانية الاسرائيلية ، فان تجربة الرفض والاحتجاج التي تلت حرب الثمانين يوما في لبنان وذهبت الى خطوة ابعد عندما نددت (ولو لاس يخص المعارضة الاسرائلية وحدها) . بالخطر الذي اصبح يهدد امن اليهودي الصهيوني ، من جراء تطرف سياسة اسرائيل العسكرية والتوسعية في المنطقة . ولقد انعكس هذا الاحتجاج الايجابي في العديد من النصوص العبرية الحديثة . ولاكثر من سبب آخر فان حركة انصار الرفض والاحتجاج اصبحت تشكل نافذة جديدة يمكن الاطلال منها على المستقبل الذي ينتظر اسرائيل . وفي هذا الباب الضيق لا يسعنا الا ان نتعرض قليلا لبعض الموضوعات الشعرية الرافضة او بالاحرى المتناقضة مع سياسة الاحتلال الصهيوني في الحرب الاخيرة ، حتى وان كان هذا الرفض لا يمس أمورا جوهرية . فانه على كل حال يخدم غرضا ما . لم تكن الحرب الاخيرة في لبنان نزهة وديعة للجندي الصهيوني . لقد وقفت بيروت شامخة بأبطالها . فأذاقت المعتدي الخوف والرعب ، وتصدي الجنوب اللبناني ببسالة ، شكلت للعدو رعبا حقيقيا واخل بالموازين السياسية والعسكرية التي جاء لتنفيذها .

لقد دققت اسرائيل في كل حساباتها لاجل البقاء في الجنوب اللبناني ، وابادة الفلسطينيين على آخرهم . لكنها نسيت عامل الانسان الحر الذي حين يتشبث بشرف الوطن ويعشق الكرامة ، يصبح الموت في نظره طريق الحرية والخلاص . وهذا الطريق سوف يظل الخطر الدائم ضد الوجود الصهيوني . وهو في نفس الوقت يمثل العامل الفاعل في الازمات الاجتماعية والروحية الثقافية المستمرة ، مما صعد ظاهرة الاحتجاج والرفض الصهيوني خاصة في النصوص الادبية لحرب الثمانين يوما :

« اعيدوا هذه الاوسمة
كل الاوسمة
لمن بعث اليكم
فالذين بعثوا الاوسمة للجنود
هم الذين ارسلوا الجنود للحرب .
اعيدوا لهم الاوسمة
اوسمة العار والاكاذيب الكبيرة
كل الاوسمة يجب ان توضع
في طرود تحمل ارقام الضحايا الذين سقطوا
هناك في الشقيف
في الدامــور
في صــور
في عين الحلــوة
اعيدوا لهم الاوسمة
اوسمة الخزي والعار » (١) .

(١) عن جريدة عل همشمار ٣١ - ٢ - ١٩٨٣ ترجمة علي بدران .

بالرغم من هذه اللغة الخطابية ومباشرة الحدث الشعري ، استطاعت هذه القصيدة ان تشكل نسقا معقولا بين المادة الشعرية ولغتها من خلال شفافية صورية ملحوظة ، وهي تسجل هذا الموقف الاحتجاجي ضد الحرب العدوانية الاسرائيلية في لبنان التي ذهب ضحيتها مئات الجنود في صفوف العدو .

ان « روز نتال » يدين هنا السلطة الصهيونية برموزها العسكرية والسياسية المتطرفة وبصراحة ، يتهم بالاسم المسؤولين الرئيسيين الذين اشعلوا نار الحرب وحتى ان كنا في هذا المقام بصدد موقف احتجاجي ، لكن مثل هذه الصراخة تكفي لتطلمنا ولو بشكل جزئي على موقف اليهود واليهود الصهاينة هي الداخل تجاه ما يجري اليوم في اسرائيل من ممارسات خاطئة ، واذا كان الشعر ليس فاعلا في التغيير مثلما هو شان السياسة في هذا الامر الا انه يمكن اعتباره الواجهة اللا مرئية التي تدفع نحو التثوير والقيام بالفعل . عندما يكون هذا الشعر حاملا لقضية . وبذلك يكون الفعل النصير لعامل السياسة والقوة العسكرية . ان الشعر من نوع « اعيدوا هذه الاوسمة » لهو شهادة تدل على بشائر السقوط المستقبلي لمؤسسة الكيان الصهيوني الاجتماعية والعسكرية التي بدات تظهر يوما بعد آخر . وهي تمثل من ناحية أخرى المرآة العاكسة للانهيار والقلق وتضخم التوترات النفسية :

« دفنا امواتا كثيرين
وما نزال ندفن
في كل يوم
في كل اسبوع
وفي كل شهر » .

لقد اصبحت الحرب الهاجس الاكبر الذي بات يشكل مصدر الاستقرار الفردي والاجتماعي ، وهي الآفة التي تنبش اقتصادهم

ومعنوياتهم وبالتالي فان المستقبل المنظور منذ قيام الحركة الصهيونية وحتى اليوم لم يكن مقروءا لدى الفرد الصهيوني بل قل انه المستقبل الغامض الذي يهدد وجوده وكيانه الذاتي ، وبالتالي فان بقاء اسرائيل في المنطقة العربية لا يمكن ان يضمنه المستقبل ، كونها تعتبر الجسم الغريب الذي لم يمتلك عضوية اعضائه في محيط غير متجانس معه اجتماعيا وحضاريا . واذا كنا لا نريد من خلال هذه الكلمات الوقوع في المثالية القدرية والتجاوز حجم القوة العسكرية التي تمتلكها اسرائيل بواسطة الدعم الاستعماري القوي واللا محدود ، فان ذلك ايضا لا يمكن الاعتماد عليه كشرط يساعد بقاء اسرائيل . لقد انهزمت امبراطوريات عريقة في العصور الماضية كانت تملك من القوة العسكرية اضعاف ما تملكه اليوم اسرائيل الكيان الصغير جدا ، ومع ذلك ذهبت قوتها مع الريح امام سلطة الحق والعدالة ، وغياب قوة الانسان الروحية المعنوية، وهذا هو ما ينتظر اسرائيل حيث الزوال طريقها . ان اسرائيل تمتلك القوة النووية وسلاح الطيران والدبابة ، ولكنها لا تملك التاريخ والحضارة .

صحيح أن حضارة اليوم ، ذات خصائص مادية وتكنولوجية . ولكن من يضمن لنا بقاء هذا الجنس من الحضارة ؟ وبالتالي فان خوف الصهيوني من المستقبل له من المبررات ما يكفي لذلك . ولعل هذا العنصر المغذي والفاعل في وجود اسرائيل هو ما يهدده باستمرار . ان القوى التي اوجدت كيان اسرائيل هي التي ستساهم في زوالها ـ لانها ستدرك في يوم ما الخطر والمصاعب التي سيشكلها لها هذا الكيان في المستقبل ، وبمعنى آخر فان الحديث عن مستقبل الحركة الصهيونية في فلسطين محكوم في الواقع بعدة عوامل متداخلة فيما بينها ومعقدة ، لا يمكن البحث فيها بسهولة والحكم عليها نظريا الا اذا عملنا على كشف الحقائق السرية التي تعمل بموجبها هذه الحركة العدوانية ، ونحن بهذا الصدد نقف اليوم شهود عيان على فظائع الحركة الصهيونية في فلسطين وفي

لبنان خلال الحرب الاسرائيلية العربية الاخيرة ، هذه الفظائع التي ستؤدي بها الى نقطة الكارثة ، وقد بلورت اخيرا اتجاه الرفض والاحتجاج في ادب المعارضة الصهيونية . ولكن يجب ان لا نتساق متعاطفين مع هذا الاتجاه الرافض ، الذي لم يستطع مناصروه تجاوز الاهداف الصهيونية والتصدي لوجودها بوسائل اكثر فعالية من منابرهم الاحتجاجية العالية .

الا اننا ومع كل الحذر الشديد امام هذه الظاهرة التي نرى فيها شكلا من الفعل الجزئي الايجابي الموجه من اليهود انفسهم تجاه المجتمع الذي ينتمون اليه ، خاصة وان العديد من اليهود الذين ذاقوا ويلات الحرب مع العرب وفقدوا اولادهم وذويهم حيث اصبحت الصهيونية تشكل في نظرهم مصدرا للرعب والخوف من المستقبل ، وصار العديد منهم يفضل الهروب ورفض المؤسسات العسكرية :

« نرفض الاوامر
لن نحارب في لبنان
لن نموت من اجل لا شيء
أصدقاء لنا كثيرون .
ذهبوا الى لبنان
وعادوا داخل توابيت .
لن نعود داخل توابيت
اذهب انت يا سيد شارون
فأوامرك سنرفضها
ومخططاتك سنفشلها
تعالوا لنجلس في سجن رقم ٦ » (١) .

(١) عن مجلة هعو لام شازيه ٩ - ٣ - ١٩٨٣ ترجمة علي بدران .

حتى وان كان هذا الموقف يتعلق بقيمة موضوعية وايجابية من خلال قصيدة الشاعر ، فان ذلك لا يسمح لنا قطعا بالتعاطف الكلي مع الاتجاه الذي يمثل هذه الظاهرة الاحتجاجية ، لأن صراعنا المصيري هو مع جذور الصهيونية وعناصر تكوينها المعقدة . وليكن في العلم .

ان سياسة اسرائيل واحدة موحدة حول الجوهر الذي قامت عليه . وهو احتلال فلسطين والقضاء على شعبها وتهجيره . وما اليسار الصهيوني والاشتراكية . واحزاب التقدم الاجتماعية ، سوى صورة متقدمة لتوزيع الادوار الخاصة بحماية وصيانة هذا الجوهر الغاصب ؟ ولهذا فما زال دور هذا الاتجاه الطليعي والايجابي قيد الولادة . وهو مدروس بدقة من قبل الدولة الاسرائيلية . ومهما بلغ شأن ادب الرفض الاسرائيلي فانه لن يذهب اكثر من الصراخ والخوف على مصير اليهودي الذي يذهب للحرب . ان مثل هذا الشعر الرافض لا يستطيع ان يتجاوز ذاته اليهودية الضيقة في عصر الصهيونية الطاغية اذن ؟ كيف ننظر الى مستقبل الادب والفنون في اسرائيل اليوم ؟ ان ما يحدث اليوم في الكيان الصهيوني من تناقضات اجتماعية وسياسية عقائدية حضارية ، لا يفصح في الحقيقة عن آفاق عريضة لمستقبل هذه الآداب بكافة اتجاهاتها . طالما انها محكومة بطرائق تخطط لها دولة اسرائيل وهل يمكن تلخيصها بالمقولة التالية « عبر كما تشاء ولكن وجود اسرائيل فوق كل شيء . » وبهذا المعنى يمكن انهاء هذه المقالة ، بأن معظم الآداب الاسرائيلية والصهيونية المعاصرة تمثل في الواقع الوجه الحقيقي المعبر عن العنف والعنصرية وروح العدوان .

كما انها لم تبلغ قمم الاصالة والخلق الفني المتعالي . وحده المستقبل سوف يتحدث عن تطور وتغير الاحداث في منطقتنا العربية ، ويكشف انكسار ما هو خفي في الوجود الصهيوني . وربما تدل هذه الابيات على ما سوف يأتينا به هذا المستقبل :

« اني لآمل ان لا تصبح الشقيف
جزءا من أرض اسرائيل الكاملــة
والا نبني كنيسا فوق انقاضها
يكفينا ان يرفرف علم الارز
شامخا فوق الاسوار المهدمــة . »(١)

المراجع بالعربية :

١ ـ ضرورة الفن ، ارنست فيشر ، ترجمة الدكتور ميشال سليمان .
٢ ـ الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية ، تاليف الدكتور هاني الراهب .
٣ ـ مجلة العربي العدد ٣٠٦ ـ ١٩٨٤ .
٤ ـ في الادب الصهيوني ، غسان كنفاني ، دراسات فلسطينية ، مركز الابحاث ـ بيروت .
٥ ـ الادب ما بين حربين ، الدكتور ابراهيم البحراوي .
٦ ـ الدحض العلمي لاسطورة التفوق العرقي ، تاليف : ايشلي مونتاغو .
٧ ـ مجلة الاقلام العراقية ـ العدد التاسع ـ ١٩٧٩ .
٨ ـ من الادب العبري ، الدكتور حسنين علي ، جامعــة الدول العربيــة ، مركز الدراسات العربية والعالمية .
٩ ـ قضية اسرائيل والصهيونية السياسية ، تاليف روجيه غارودي .
١٠ ـ الاغتراب ، ريتشارد شاخت ، ترجمــة كامل حسين ، المؤسسة العربيــة للدراسات والنشر .
١١ ـ في المسالة اليهودية ، تاليف اسحاق دويتشر ، ترجمة وضاح شرارة .
١٢ ـ الكتاب المقدس ، العهد القديم والعهد الجديد .
١٣ ـ كتاب التلمود ، عبد المنعم شميس .
١٤ ـ شؤون عربية ، عدد خاص بفلسطين .

(١) عن ملحق عل همشمار ـ ١١ ـ ٦ ـ ١٩٨٢ ترجمة خليل السواحري .

• النزعة العنصرية : يهوذا عميحاي ، نموذجًا

تعرضنا في احدى المقالات السابقة ، الى شكل التجربة الشعرية الصهيونية المباشرة . اي تلك التجربة التي بقيت فقيرة في الاسلوب الشعري وفي المواضيع الفنية الناضجة ، وذلك باستثناء تمسك هذه التجربة المذكورة بالروح الصهيونية كجوهر مشترك في النصوص الشعرية الصهيونية المعاصرة . ان فقر هذا الشعر يرجع الى عدة اسباب سنعرض منها ما يلي :

١ ــ عدم توفر موهبة الشعر العظيم في كيان العدو .

٢ ــ سيطرة التربية الصهيونية وتغلغلها في شخصية الفرد الصهيوني .

٣ ــ اللاتجانس الجنسي وغياب وحدة الثقافة والابداع الاجتماعيين .

ولذلك نلاحظ بأن معظم التجارب الابداعية الفنية للادباء الصهاينة كانت متمثلة في اطارها الشمولي بروح الايديولوجية الصهيونية ، بما في ذلك بعض الاصوات الادبية التي صورت سلبيات الظاهرة الصهيونية في الارض المحتلة ، والتي بقيت ايضا قاصرة على معالجة الخطر الحقيقي الذي تمثله هذه الظاهرة العدوانية . اما في هذا الجزء الثاني فسنحاول التعرض الى شكل التجربة الشعرية الفنية بنزعتها العنصرية الصهيونية في النص الشعري الصهيوني المعاصر . ولكننا حصرنا هذه الدراسة في تجربة يهوذا عميحاي واخترناها كنموذج شعري لانها تمثل خصائص الشكل الفني الشعري من ناحية ، وتعدد الموضوعات الشعرية من ناحية اخرى ولكن ذلك من خلال الايديولوجية الصهيونية وفلسفتها العدوانية .

(*) المقالة منشورة في مجلة « بلسم » العدد ١٠٩ ــ ١٩٨٤ ــ كاتب المقالة .

وقبل ان نتحدث عن يهوذا عميحاي وشعره ، يجدر بنا القول ان نكرر ملاحظتنا السابقة وهو أن معظم الشعر الذي افرزه الكيان الصهيوني وما زال يفرزه حتى هذه الساعة ، هو شعر سياسي بالدرجة الاولى . يستمد موضوعاته واسسه الفنية والفكرية من التعامل مع الصراع العربي الاسرائيلي المزمن وانعكاساته على الحياة داخل المجتمع الصهيوني . « هذا اضافة الى ان كثيرا من النماذج الشعرية تنحو هـذا المنحى في التعبير ، فنذكر منها ما ظهر بين عامي ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧ وهي متأثرة الى حد كبير وواضح بمفاهيم صهيونية تعزف على وتر المعاناة والحصار من اجل استدرار العطف العالمي واظهار ان اسرائيل محاطة بمحيط من الاعداء »(١) وبهذه الملحوظة يمكن أن نحدد اتجاهات الشعر الصهيوني المعاصر وفق هذه الاتجاهات التالية :

١ ــ يوجد هناك اتجاه عرف بشعر البكائيات والاحزان الزائفة . وهو يذكر باستمرار الالم والمعاناة التي تعرض لها اليهود ، خلال مراحل تاريخية من حياتهم . وهو شعر مفعم بالمبالغات الكثيرة . وقد دبج الشعراء الصهاينة موضوعاته باشكال التزييف . وذلك لاغراض معينة منها التأكيد على فكرة الانتماء للوطن القومي اليهودي .

٢ ــ كسب عطف القاريء سواء كان يهوديا او اوربيا ، وباختصار فان طبيعة هذا الشعر ، طبيعة ميلودرامية لم تتعد آفاق التجربة الشعرية المباشرة ، ثم تكريس الدعوة الصهيونية .

٣ ــ ولقد ساير هذا الاتجاه الشعري المذكور ، اتجاه آخر عرف قبل قيام الدولة الصهيونية . وتمثل هذا الاتجاه بالبعد التاريخي في الكتابات الادبية التي تستمد موضوعاتها من التاريخ العبري القديم ، وتمجد الشخصيات اليهودية القديمة ، مستندة في ذلك على قصص التوراة

(١) شؤون عربية عدد خاص بفلسطين ، ص ٤٢٤ .

والتلمود ، والميثيولوجيا الدينية ، وقد اتسق هذا الاتجاه مع اهداف الحركة الصهيونية لاقامة كيان استعماري لليهود في الاراضي العربية المحتلة .

ان يهوذا عميحاي والذي يمثل احد الشعراء العبريين الصهيونيين كرس جزءا هاما من شعره لاحياء شخصيات وتاريخ العهد القديم .

٤ ـ كما أنه برز اتجاه آخر ظهر بعد الحربين ٦٧ ـ ٧٣ ، وقد اصطلح عليه بالاتجاه الغنائي الرومانسي ، اذ ظهرت مجموعة من الشعراء الصهاينة ، بدات تنظر الى الحياة داخل اسرائيل نظرة مهزوزة الثقة . وذلك بعد ما منيت الحركة الصهيونية بخيبة امل كبرى فيما يتعلق بانتصاراتها المزعومة على العرب . ان هذا الاتجاه الغنائي الرومانسي لم يقدم حتى الآن رؤية واضحة وشعرا رافضا للوجود الصهيوني ، لقد اقتصرت جملته الشعرية على وصف احاسيس ذاتية مجردة مغرقة في الاسلوبية التقريرية والوقوف على خيبات اليهودي الصهيوني في ارض الميعاد ، ثم هزيمته النفسية امام الحقيقة والتاريخ .

ويهوذا عميحاي يجنح في جزء من شعره او في جانب مهم منه الى هذا اللون الرومانسي ، الا انه وبحكم موهبته وتملكه للتقنية الشعرية ، فهو يصوغ موضوعاته في لغة شعرية متطورة . شكلا وتقنية جمالية .

٥ ـ واخيرا يمكن ان نتحدث عن وجود اتجاه شعري مناوىء للدولة الصهيونية هذا الاتجاه تمثله مجموعة من الشعراء العبريين التقدميين وقد تبلور هذا الاتجاه بشكل فعلي منذ اواسط السبعينات .

وبالرغم من التحجيم والضغط الذي تمارسه الدولة الصهيونية ضد هـذا التيار ، فان انصاره من الكتاب والشعراء اصبحت اصواتهم الاحتجاجية تزداد يوما بعد آخر ضد الكيان الذي ينتمون اليه . الا ان نوايا هذا الاتجاه ، لم تعلن انفصالها النهائي عن الوجود الصهيوني .

ينابيع الرؤيا وسبل المؤثرات الاجنبية
في الشعر الصهيوني المعاصر

ان الحديث عن خصائص الشعر الصهيوني والمعاصر ، وسبل المؤثرات الاجنبية التي طرات عليه ، لا يمكن فصلها مطلقا عن الايديولوجية السياسية للحركة الصهيونية ، التي تمثل الهوية والقاعدة المركزية لمصادر التجربة الشعرية في مجتمع الكيان المحتل هذا من ناحية . اما من ناحية اخرى فهناك جملة من الثقافات والاتجاهات الفكرية والفلسفية المتناقضة ، حيث توجد ثقافة يهودية فرنسية . والمانية وثقافة سلافية وافريقية وانجليزية ، ولذلك فانه من الطبيعي ان نلمس في الشعر الصهيوني المعاصر تأثيرات متعددة ، واتجاهات فنية مختلفة باختلاف مصادرها ، وهي عبارة عن خليط من وسائل التعبير الفنية كأسلوب الرمزية . والرومانتكية ، والسوريالية . والواقعية الاشتراكية . وهذا المزيج من الاتجاهات والثقافات يمثل سبل المؤثرات الخارجية في النص الصهيوني المعاصر . واخيرا نضيف الى ذلك مصادر التراث العبري القديمة والاساطير التي اخذت عن البابليين والآشوريين والكنعانيين والفينيقيين ، ومن هذا السياق نستخلص بان أكثر الاتجاهات السائدة في الثقافة الصهيونية المعاصرة ، هو الاتجاه الذي يجمع بين الروح التوراتية وروح القومية اليهودية التي ادت اخيرا الى انشاء الحركة الصهيونية السياسية ، وعن هذا الاتجاه الضيق الحدود لا يخرج يهوذا عميحاي الى فضاءات الابداع الأرحب ، بالرغم من موهبته الشعرية واتساع رؤيته الثقافية ، فهو من بين الشعراء الذين كرسوا المفاهيم الاسطورية والدينية اليهودية والايديولوجية الصهيونية . ومن هذا المنطلق نعين الاتجاهات الثلاث التي مر بها شعر يهوذا عميحاي .

الطور الاول : يمثل القصائد التي حاولت صياغة التجربة العنصرية الصهيونية في اطار التاريخ . وقد اعتمد عميحاي في ذلك على ما يسمى بالتراث والفكر اليهودي ، حيث نلمس في قصائده التاريخية ايماءات

توراتية وحضور شخصيات يهودية قديمة » وقد عرفت الحركة الصهيونية شعراء مثل منداله وتشيرنخوفسكي ، يوظفون الاحداث الشعبية القديمة في الدعوة الى وجوب التمسك بالماضي وتقاليده مهما تقادم عهد هذه التقاليد . »(١)

الطور الثاني : وقد تمثل بالاتجاه السياسي للحركة الصهيونية ، وقد تبنى الشاعر مقولات ايديولوجيتها ، حيث جسد طموحات وفكر الصهيونية بنزعتها العنصرية ، وهو الذي راى في تهجير الشعب الفلسطيني من ارضه امرا يجب تحقيقه ، والعمل به لاجل انتصار شعب اسرائيل وتحقيق فكرة الوطن القومي المزعوم ، وسوف ناتي لاحقا على تصنيف هذه الاطوار الثلاث شعريا .

الطور الثالث : يمكن ان نحصر هذا الطور في الرومانسية الجديدة التي جسدها عميحاي في شعره ، وقد عبرت عنها موضوعات الحب والمراة والطبيعة في سياق تجربة شعرية مكتملة النضج الفني .

اذن ؟ وفي ظل هذه الصورة ، كيف استطاع عميحاي ان يقرا تاريخ اليهود شعرا ، وكيف صاغ التجربة الصهيونية في اطار التاريخ ؟!.

هذا هو ما سنقوم به فنبحث في بعض القصائد عن ملامح الحركة العنصرية والنفوذ العرقي الذي امتزج بمآسي اليهود ، والفكر الصهيوني والتاريخ . لكن هذا الانصهار لا يمكن فك عناصره بسهولة ، لان عميحاي يعتمد كثيرا في شعره على تداعيات الذاكرة الداخلية والروح الباطنية ، اذ يستمد رؤاه الشعرية بأساليب تقنوية تتحرك ما بين الاسلوب الرمزي والواقعية المباشرة محققا ذلك من خلال مقولة :

(١) د. فؤاد علي ، الادب اليهودي المعاصر ، ص ٨٥ ـ ٨٩ ، القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٢ .

« كتابة السهل الممتنع » . ويمكن ان نقدم في هذه القصيدة رؤية الشاعر في البحث عن صلة واقعية تربط وجوده المقتلع في الزمان والمكان التائهين في ذاته .

المكان الذي اكن فيه

« لن اكون ابدا
في المكان الذي لم اكن فيــه .
والمكان الذي كنت فيه
لم اكن فيــه ابدا .
يتيه الشعب بعيدا عن المكان الذي ولد فيه .
وبعيدا عن الكلمات التي كما لو انها قيلت بافواههم .
وظلت بعيدة عن السواعد .
الذي وعدوا بــه .
ويأكلون واقفين ، ويموتون جالسين ،
ومضطجعين يتذكرون
ومهما بقيت خارج العالم الذي اعود اليه
وادنو اليه ، فانني للحب ابدا .
الغريب وحده سيعود الى مكاني ، ولكنني
سازيح كل هذه الاشياء مرة أخرى ، كما فعل موسى ،
بعد أن حطم الالواح الاولى . »

انه يبدو واضحا في هذه القصيدة اتكاء الشاعر على ذاكرته الداخلية التي حاولت ان تفجر الماضي اليهودي من خلال الشخصية اليهودية التائهة المشردة ، فنلاحظ مثلا ان عميحاي قد ابتدا قصيدته بجزم قاطع عن وجود شخص منفي في مكان منفي :

« لن اكون ابدا في المكان

الذي لم اكن فيـــه

وذلك كونه لم يستطع ان يتحقق كصيرورة ذاتية منغرسة في المكان الذي لم يكن فيه . وربما يمكن القول ان هذا النفي يشمل ايضا الزمانية الخاصة بالمكان ، أي ان المكان الذي فيه يحمل بعدا زمانيا محمولا فيه ، ويتجلى ذلك في اول البيتين ، ان يبدو لنا شكل الانفصال بين ذات الشاعر « والزمكانية »(١) المهزورة بعمق في الذاكرة ، وبهذا المعنى نستنتج بانه ليس زمن المستقبل ولا الماضي او الحاضر بقادر على بعث المكان المجتزء منه وتأصيله في عمق الذات ، وعلى هذا النحو فان يهوذا عميحاي يحكم على الذات اليهودية باللا ستقرار والتيه ، ولهذا فاننا نراه يعلن عن الشعب الذي يتيه (المقصود به اليهود) عن المكان الذي وجد فيه هذا الشعب الذي يأكل ويموت جالسا لكنه يتذكر دائما ما جاءت به التوراة والتلمود حول الارض الموعودة ، واخيرا فان عميحاي يجزم بانه مهما بقي خارج العالم الذي يعود اليه ، ويرنو اليه (ويبدو هنا ان هذا العالم ، هو عالم اليهود الخاص) ، فهو لن يكتفي ، بل سوف ينذر حياته للحب ابدا . ولكن تأتي هذه العبارة التالية لتقوض اشراق حبه ، اذ يقول : الغريب وحده سيعود الى مكان الشاعر ؟ ولكن يا ترى من هو هذا الغريب ؟. انه ليس سوى اليهودي الذي تاه بعيدا ، ولذلك فهو يحاول القيام بشيء آخر يعيد ما كان مفتقدا او ضائعا ، فيعود اليهودي الى ارض الحلم وتتحقق المعجزة ، معجزة اليهودي الخاصة بتفوقه ونبوءته .

« ولكنني سازيح هذه الاشياء مرة اخرى

كما فعل موسى

بعد ان حطم الالواح الاولى . »

---

(١) الزمكانية : المقصود بها ، المكان والزمان .   الكاتب

وهكذا يقارن عميحاي نفسه بالنبي موسى او نبي اليهود المعاصرين الذي سيحقق ماقد عجز عنه الآخرون ، ويصبح الحلم الشخصي والتاريخ امرا واحدا ، ونحن في هذا السياق نود أن نشير بأنه يتحتم على القارىء العربي الانتباه الى خطورة الفكر الصهيوني وأثره الشديد في خلايا الادب والثقافة الصهيونية الموجهة إيديولوجيا ، وذلك باستناده الى فهم عميق حتى يستطيع مواجهة هذا الابداع عقليا ، وحول هذه الفكرة يتضح لنا بعمق تغلغل المسألة اليهودية وتفوق العنصر اليهودي على غيره في النص الصهيوني المعاصر ، وبالتالي تبدو هذه الملاحظة المتعلقة بالمسألة اليهودية صحية والقائلة : هل ثمة مسألة يهودية حقيقية ؟ كما ذكر انجلس ؟ أم ان المسألة قد طرحت من قبل بعض المفكرين اليهود لتجد حلا لقضايا اخرى كان يعاني منها يهود الشتات وهي في الواقع ليس لها علاقة بهذه المسألة اليهودية المزعومة . ولذا يجب علينا ان ندرك إدراكا واعيا كيف يفكر اليهودي الصهيوني من هذا الموقع المريب ، حيث يمتزج الجانب الوهمي للفكرة الصهيونية بالصيرورة والتاريخ . وعملا بهذه الملاحظة الواعية ، فاننا نلمس انعداما واضحا للرؤية الموضوعية في الفكر الصهيوني المعاصر مما ترتب على هذا الانعدام التناقض وعدم اليقين في الفكرة الصهيونية ، وان من يريد مراجعة للاداب اليهودية القديمة والحديثة منها والمعاصرة ، سيعثر على آثار الانشطار النفسي للشخصية اليهودية بين مايمكن القبول به يهوديا ، وبين الطموح المطلق الذي لاحدود له ولا يمتلك هوية واقعية وهذا الانشطار هو الذي ساهم لاحقا في التجسيم العدواني للحركة الصهيونية في تاريخنا المعاصر ، حيث « أدى امتزاج المطلق بالنسبي كنفي لشروط الظواهر الاجتماعية والى تجاهل قوانين الصراع الاجتماعي ، والى نفي حركة الواقع ، والى سيادة النظرة الغيبية والمثالية . والتجربة الشمرية التي تنهض على أساس هذه المعطيات تقف على مبعدة من ضفاف الواقعية »(١) ، وبهذه الصورة يغدو

---

(١) شؤون عربية ، ص ٤١٩ .

هذا المطلق الهوية الغامضة التي يضمحل فيها النسبي بجداوه الواقعي ، وتدعيما ، لسلطة الفكرة اليهودية في النص الصهيوني المعاصرة ،يمكننا ان نتابع هذه الصيرورة اليهودية المعقدة في قصيدة عميحاي « الملك شاؤول وانا » .

١

« اعطوه إصبعا ، لكنه اخذ اليد كلها .
واعطوني اليد كلها ، فلم آخذ حتى الإصبع الصغير
بينما كان قلبي
ينوء باحاسيسه الاولى
كان هو يروض هيجان الثيران
كانت نبضاتي مثل
قطرات الصنبور
مثل مطرقة تدق على حائط جديد
لقد كان اخي الكبير
وقد حصلت على ثيابه المستعملة .

٢

كما البوصلة
سيأتي به راسه دائما شمال مستقبله المؤكد .
لقد اصبح قلبي مثل ساعة منبهة
لينهيا لاستلام سلطته .
وكلما نام احدهم ، سيصرخ
حتى تبح اصوات كل الطرائد
ولن يوقفه احدا !

الحمير وحدهـا ستحمل اسنانها الصفراء
في النهايـة

وهكذا نراه يسترسل في حلمه اليهودي ، حيث يقرن او بالاحرى يستحضر ماضي شاؤول والمملكة ، ويصبح هـو ذاتـه هذا الماضي الذي يتكرر ولكن في ثوب زمن الحاضر الذي يمتلك اناه الى ان يقول مستسلما ليقظته :

٣

متعب انـا
وفراشي مملكتي .
نـومي عادل
وحلمي فتواي
شنقت ثيابي على كرسي
بانتظار الغد . . .
وشنق مملكته
في إطار من الغضب الذهبي
على جدار السماء !
ذراعاي قصيرتـان مثل خيط قصي

لايكفي لربط جـزمـة

وذراعاه مثل سلاسل في ميناء
لشحنة تحمل عبر الزمـن .

إنـه ملك ميت .
وانـا رجل متعب .»

إذا كان بعض النقد العربي المعاصر الـذي تناول الادب الصهيوني المعاصر بشيء من الاطلاقية حول انعدام هذا الادب ودحضه في خانـة اللأدب دون ايـة مراقبة نقدية واعية ، فان ذلك يرجع في نظري الـى حدة الانفعالية السياسية التي مارسها بعض النقاد خارج نطاق الوعي والوعي النقدي الادبي الخاص . ولكن هذه الملاحظة لاتعني اننا نخدم غرضا عدوانيا ما ، بقدر ماهي ملاحظة تريـد التـاكيد على مسألـة الموضوعية الواعية للنقد ، فنحن نفرق بطبيعة الحال ، بين نص ادبي صهيوني ، وبين نص ادبي آخر .

إن التامل العميق شـرط اساسـي في ممارسة العمليـة النقديـة ، وذلك لان النص الادبي عبارة عن خلية متشابكة من العناصر الحية ،وهو من صنع الحياة الانسـانية ، وفي هذا السياق تصبح العلاقـة المتشـاكلة بين الداخل والخارج والمتحركة بعمق في هويـة النص الابداعي ، احـد العناصر المهمة في تكوين هذا النص . وبهذه الرؤيـة تختلف مـع التحليل النقدي الذي فسر قصيدة عميحاي « الملك شاؤول وأنـا » بانهـا قصيدة تهدف الى الاطماع الصهيونية ، وتحرض على استرجاع المجـد اليهودي والتطلعات التوسعية . واذا كنا لانختلف حول بعض الرموز التي تؤكد هذا المنطق ، الا ان القصيدة تحتوي على جملة مـن المواقف والافكار المعقدة التي لايمكن ان نحللها من جانب واحد ، ولذلك فان التحليل النقدي الاحادي الجانب ليس دائما هو القياس الدقيق للحكم على مكونات او تكوينات النص الادبي برموزه ومعانية ، وبنيانه اللغوي، وبالتالي فان الناقد عندما يكون في حضرة النص الادبي عليه ان ينظر اولا لهذا النص من حيث هو جملة من الكلمات حاملة للمعاني ، وان هـذه المعاني هي الوعاء الذي يشكل المواقف والافكار في سياق التجربـة التي شكلت النص والمقصود بالتجربة ، هو الاحداث والوقائـع والرؤى التي عاشها الاديب ومـن خلالها صنع مادتـه الادبية . ونحـن اذا اردنا ان نتعرض بنقد بناء الى ظاهرة الادب الصهيوني ، فما علينا الا ان نخطـو باتجاه ممارسة النقد العضوي وتحكيم العقل الواعي الذي يفتح لهـذا

النقد ابواب المواجهة الواعية للحكم موضوعيا على جوهر هذا الادب

وختاما لهذه الفكرة نطرح التساؤل التالي : ما الذي اراد ان يقوله عميحاي في قصيدة « الملك شاؤول وانا » ؟

ان الناقد الحقيقي للنص الابداعي هو الذي ينطلق من النص ذاته، أي من داخله ومن خلال مفرداته فقط يستطيع الناقد ان يستجلي أدق المعاني ، واصعب الرموز ، وعلى هذا الاساس نقول : إن عميحاي في هذه القصيدة ، حاول بواسطة خياله الابداعي ان يعقد مقارنة شعرية بينه ، وبين الملك شاؤول من خلال الماضي اليهودي بابطاله العظام ثم ربطه بحاضر اليهود الهزيل ، حاضر أصبح لايملك القوة والفعل الماضيين :

« بينما كان قلبي
ينوء باحاسيسه الاولى
كان هو يروض هيجان الثيران »

وعلى هذا النحو يبدو غرض عميحاي ، هو استحضار ماضي امجاد اليهود في مقابل تصوير حاضر بائس وتاريخ هزيل ، هو من صنع الشخصية اليهودية واليهودية الصهيونية ، وهذه الصورة الشعرية، دلالة بلاغية كافية لتشخيص هزال اليهودي المعاصر .

« ذراعاي قصيرتان مثل خيط قصي
لايكفي لربط حزمة ،

وذراعاه مثل سلاسل في ميناء . »

ان الفكرة الصهيونية في هذا النص ، ليست طافحة على وجه النص انما نلاحظ حضورها بشكل خفي ممزوج بروح باطني ، لا يؤكدها

علنا وانما يحرض قارئه اليهودي على العودة الى تاريخ امجاد اليهود ، بمعنى انه يدعوه الى التمسك بيهوديته والعمل على نصرتها مهما كان الامر . ان هذا التحريض او التثوير النفسي للمسألة اليهودية ، لم يأخذ شكل التثوير العرقي المباشر الذي ظهر في العديد من النصوص الادبية الصهيونية اللاحقة . ان يهوذا عميحاي يجيد فن الصنعة الشعرية ففي قصيدته نلاحظ دقة الصورة والايقاع الموسيقي للبيت الشعري، كما انه يتيح للصوتيات والاجراس الايقاعية المنسجمة وفق الضوابط الحسية بعدا جماليا متقدما .

« شنقت ثيابي على كرسي

بانتظار الغد ....

وشنق مملكته

في إطار من الغضب الذهبي .

على جدار السماء . »

عند قراءة هذه الابيات لا نشعر بأية فجوة او ركاكة لغوية بين الموقفين او المشهدين ، اذ نجد العمق الدلالي والتوظيف المشهدي هو الدال الحيوي على المعنى المحمول في الكلمات الشعرية . ولكن هذه التقنية الشعرية العالية عند عميحاي ، لا تخفي تضمينه المقصود للدعوة اليهودية العرقية وهي تتجلى امامنا كما قلنا سابقا : ان عميحاي كيهودي يسعى من خلال اثره الشعري الى إحياء الروح القومي اليهودي بواسطة « التوليف » الزمني بين ماضي اليهود الجليل وبين حاضرهم الكسيف ، ومهما حاولنا ان نستمتع بالطاقة الجمالية المتفجرة من خلال قصائده ، فان شبح الرؤية الصهيونية فجاة مايغطي سماءها بسحب العنصرية ونزعة التطرف القومي ، وفي هذه القصيدة نستنتج اخيرا مغزى الفكرة اليهودية الاحيائية وقد بقي معلقا في دائرة الهزيمة حين اصبحت المقارنة بين ماض يهودي مجيد وحاضر واهن املاً ضعيفا لن ينفع اليهودي في شيء ، اذا لم « يكسر الالواح » ويعيد ترتيب

الامور الى مجراها ، الا ان عميحاي لم يصعد الحماس الروحي التراثي في قصيدتـه ، بقدر ما أضفى عليها طابع اليأس وخيبة الامل ، والسبب العضوي في راي عميحاي ، هو وجود الهوةالسحيقة التي فصلت ماضي عمالقة اليهود عن حاضرهم الهش ، وكانه يريد بهـذا المنى ، توجيـه طعنة للحركة الصهيونيـة ، التي لم تستطع ان تنجب ابطالا قوميين وتراثيين روحيين : مثلما حفـل بهم زمن اليهود القديم . وهـذا البيت يعلن بوضوح عن خيبة الشاعر في ذاته وفي عصره اليهودي الهزيل .

« إنـه ملك ميت
وانـا رجل متعب . »

إن قصيدة « الملك شاؤول وانـا »(١) تجسد دعوة صريحة لاستيقاظ الفكـرة الصهيونية وادراجها كرؤيـة للانبعـاث التاريخـي اليهـودي المعاصـر ، حيث يبدو النزعـة الإيحائية القومية احـدى رمـوز هـذه القصيدة . وبالرغم من كل الخيبة التي يشعر بها عميحاي . فـان الدور التثويري الشعري الذي تلعبه قصيدته لايخرج مطلقا عـن موضوع النزعـة الصهيونية وهويتها العنصرية التوسعية :

« ... راسه مثل البوصلة يهديـه دائما
الى الشمال المـؤكـد لمستقبلـه

---

(١) « إنـه اول ملك عبري حاول أن يقود اليهود ويوحدهم ويخرج بهم من وضع الذلة والانحلال ، الا أنـه لم ينجح في ذلك . وظل الكنعانيون يقاومونـه هـم والفلسطينيون حتى قتل في معركة جلبوع (فقوعـة) وقد دلت الحفريات في تل الفول على ان شاؤول لم يحكم إلا أجزاء صغيرة من فلسطين وتولى داؤد الحكم بعد شاؤول ... وعندما فتح داؤد القدس كان قد مر على بنائها مايقرب مـن ثلاثـة آلاف سنة . كما كان قد مر على وجوه الكنعانيين في فلسطين مايقرب من اربعة آلاف سنة . »

(١) من كتاب عروبة فلسطين في التاريخ ، بيروت ـ صيدا ، المكتبة العصرية ١٩٧٢ .

قلبه ضبط كساعة منبهة
لـوقت تقلده الحكم . »

أن هذا التنبه واليقظة ليس سوى احد العناصر التي وظفتها الإيدلوجية الصهيونية لحمل اليهودي على التمسك بنزعة العرقية وعدم التفريط بالحق في الارض الموعودة ، ثم التفكير المطلق بماضي اليهود الذي يجب أن يعود ويتسلم مقاليد الحكم . وهذا هو ماانفذته الصهيونية بالقوة في ارض الفلسطينيين تحت نزعة العنف والاضطهاد وهكذا يصبح إرث الماضي اليهودي هو الكنز الوحيد الذي يعيد حلم الاستيطان :

« لقد كان أخي الكبير
وقد حصلت على ثيابه المستعملة . »

تتشابك الصيرورة الزمنية ماضي / حاضر في شعر يهوذا عميحاي كما في اي شعر صهيوني آخر ، فتفقد تجانسها المنطقي ، وتتكسر الروابط بين المطلق الزمني والنسبي الواقعي ، وبالتالي : « إذا اعدنا النظر في قصيدة « الملك شاؤول وأنا » اضحى من الميسور تبين فداحة هذا الخلط من إزدواجية شخصية الملك شاؤول.كشخصية توراتية، اكتسبت أبعاد الشخصية السياسية ، بل انها تعبر عن فكرة التوحد بين الديني والسياسي في رؤية يهوذا عميحاي ، وليس مجرد اكتساب الطابع السياسي للسمة الدينية ، لان السمة الاساسية لبنية الفكر الصهيوني في الاتجاه نحو الخلط والمزج بين المطلق المقدس والنسبي المحدود »(١) .

(١) شؤون عربية ، ص ١٩ .

احد ثلاثة او اربعة في غرفة

« واحد من ثلاثة أو أربعة في غرفة
يقف دائما امام النافذة مرغما على ان يرى الظلم
خـلال الآلام .
والنيران فوق التـل .
والشعب الذي هاجر جميعه
اعيد الى الوطن في المساء مثل عملة صغيرة .
من ثلاثة او اربعة في غرفـة .
يقف واحد دائما امام النافذة
شعره الاسود يغطي افكاره
من خلف الكلمات .
ومن امامه الكلمات تتجول دون متاع .
قلوب من دون زاد ، نبوءات من دون مياه
ووضعت هناك صخور كبيرة
وظلت مغلقة مثل رسائل
لا عناوين لها ولم يستلمها احد . »

يتابع عميحاي في هذه القصيدة نفس الموضوع التاريخي لليهود ، مفجرا ذلك من خلال ذاكرته التراثية . ولكـن هـذه الذاكرة المشوشة والحائرة يدرك صاحبها جيدا بأن اي ماض لا يمكن استرجاعه برمته كما لا يمكن ان يتموضع بكل تدفقه واحداثه في سيلان زمن الحاضر/المستقبل. ولهذا فاننا نلمس عمق اليأس الدفين المتأرجح بين طموح العودة الى الماضي وبين الشعور بحاضر يلفه اليأس ولا يمكن الارتقاء به الى مجـد الماضي البعيد .

« قلوب من دون زاد ، نبوءات من دون مياه
ووضعت هناك صخور كبيرة
وظلت مقلقة مثل رسائل
لا عناوين لها ولم يستلمها احد . »

او كما في هذين البيتين :

« والشعب الـذي هاجـر جميعـه
أعيد الى الوطن في المساء مثل عملة صغيرة . »

عندما ندقق في نهاية هذا البيت الثاني ، نرى ان الشاعر قد صور لنا حالة هذا الشعب الذي رجع مثل عملة صغيرة لا قيمة كبيرة لها ، فعاد أشتاتا ، وأجناسا مزيلة ، وان هذا اليهودي العائد فهو مسكين بائس لا يملك قوة الملك شاؤول او تيوغ بن جابيرول ، وبواسطة الشعور بهذه المرارة تخرج الكلمات على لسان عميحاي مجرورة بخطى الخيبة :

« مـن خلف الكلمـات
ومن امامه الكلمات تتجول دون متاع . »

وهي متناهية في شكل تعبيري عبثي ، وسارية صوب طريق بلا عودة امام مصير مجهول .

السياسة في شعر يهوذا عميحاي

حـول مفهومه لعلاقة الفـن بالسياسة يقول عميحاي : ان الشعر السياسي الحقيقي ؟ ليس هو الذي يتمثل ، الخطابية والمباشرة ؟ وانما هو الشعر ذو النزعة الباطنية المتعالية ، لان مثل هذا الشعر في نظـرة يكون أعمق تأثيرا ويحمل النفس دائما على القراءة ، اي ان الديمومة تساعده كثيرا على البقاء ، وبالتالي فهو يؤدي خدمة انفع من الشعـر المباشر . ان هذه المقولة التي يؤمن بها عميحاي نجده قد طبقها بالفعـل

على معظم أشعاره . باستثناء بعض قصائده القليلة ، وهذا يرجع بطبيعة الحال الى اتساع دائرة ثقافته الشعرية والفنية المتكاملة ، ففي شعره يلتزم الفن بالسياسة ولا ينفصل عنها ؛ بل يتداخل معها في نسق الكتابة الابداعية الموجهة . ولهذا فان تعبير عميحاي نفسه عن مفهومه للسياسة في الفن . يدل على صعوبة الفصل بينهما في اثره الشعري :

« هربت ذات مرة لا اذكر لم ؟ ومن أي اله
لذا سأسافر في حياتي كما يونس
في جوف الحوت المظلم
وسوينا الامر بيننا أنا والحوت
وكلانا في احشاء العالم
اني لن اخرج وهو لن يقضمني . »

بمثل هذه الصور الشعرية « الطقوسية » يطرح علينا الشاعر السبب العضوي الذي فرض عليه الهرب :

« هربت ذات مرة لا اذكر لم ؟ »

ثم يعتلي بنا الى عالم المفارقات بلغة واضحة . ولكنها عميقة في ايحاءاتها ومعانيها التي تقترب من الاسطورة ، ولذلك فان القارىء يجد صعوبة في فهم القصيدة وفك رموزها ويبقى الحكم النهائي على القصيدة متعلقا بلغتها والرموز التي تحملها كلماتها .

ان المقارنة التي يعقدها عميحاي بينه وبين الحوت وهو في جوفه المظلم (وذلك كما فعل يونس من قبله) ، تدل على ان الشاعر يحاول اسقاط معتقدات التراث التوراتي ، ثم اخذها كدلالات ومعاني لحل أزمة اليهودي المعاصر . وبهذا المستوى فان الشاعر عميحاي يشارك بوعيه الشامل في صناعة القصيدة التي يمتزج فيها التوراتي بالسياسي ، والثقافي بالفكري ، ويحمل الشعر في النهاية روح هذه المضامين منسجمة في شكل

تعبيري موحد كما هي هذه الابيات التي تصور الارض الغريبة التي تشرب الرجال وحبهم ، لكي تنسى انهم ليسوا احفادها ؛ ولكنها لا تستطيع الاحتفاظ بهم ، فيضيع كل شيء مثل تلال يهوذا المتعرجة ، ويصل الشاعر الى علاقة حسية مستحيلة بينه وبين الارض التي يذكرها :

« ومثل تلال يهوذا المتعرجة / لن نجد السلام ابدا ... »

ليس هناك ادنى شك ومن خلال هذه الاشعار يمكن ان يلغي ايمان عميحاي بالحركة الصهيونية ، وبنزعة يهوديته المتطرفة ، وذلك بالرغم من تضميناته الرمزية العميقة ، والشكل الفني المتقدم لقصيدته . كما انه مهما ذهبت بنا مخاوفه الذاتية وحدة قلقه ولا جدواه من الحياة التي عبرت عنها بعض قصائده السياسية وغيرها ، فان ذلك ليس الا الظلال الخفيفة التي ترافق ايمانه العميق بوجود الصهيونية والدفاع عنها سياسيا ، فنقرأ ذلك في قصيدته « اعتزال » بلغة احتجاجية تحاول استدرار العواطف والمطالبة بحقوق ، كانت قد فرضت بالقوة قبل هذا الإشعار الذي طرحته القصيدة :

« افلاس !
اني اشهد العالم كله
على انه رحم
من هذه اللحظة ... اتحلل من
ملكيتي لنفسي واودعها داخله :
كيما يتبناني .
اني اشهد رئيس الولايات المتحدة
على انه ابي
واشهد رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي
على انه راع يحمي املاكي

واشهد الوزارة البريطانية
على انهــا اسرتي
واشهد « ماوتسي تونغ »
علــى انــه جــدي
كلهم ملزمون بمساعدتي . »

نحن نظن بان عميحاي لا يستطيع النسيان تماما لما فعلته الحروب الصهيونية الاسرائيلية ، بعرب الاراضي المحتلة ، ولا يستطيع ايضا نسيان المجازر الدموية التي ارتكبتها العصابات الصهيونية ، كالشتيرن والهاغاناه وغيرها ضد الفلسطينيين . ولكن بما ان القصيدة تبدا بعبارة « افلاس » اذا فان المسالة اصبحت واضحة ، لان المفلس تختلط في ذهنه الامور ، ويتناسى ما كان عليه ، وهذا ما اصاب عميحاي في هذه القصيدة وهو الذي يعيش في كيان مغتصب وعدواني ، ولكي يثبت وجودا مشروعا له يمتلك شرعية وجوده بالاساس ، فانه عمد الى التنصل من ذاته وحمل مسؤولية ورطة « هذا الوجود المفلس » العالم كله . ان اي قارىء يمتلك قدرة بسيطة على فهم الامور ، سيكتشف ببساطة ، ضحالة هذه القصيدة ، بالذات . يقع عميحاي في هوة الاسفاف الشعري بادراك واع منه . ان الافلاس الذي يعلنه الشاعر ، ليس سوى افلاس الصهيونية في فكرها ووجودها ــ ولهذا كان عميحاي مذيع نشرة هذا الافلاس بلغة شعرية واضحة لا تمتلك قدرة الاختفاء وراء الرموز مثلما فعل ذلك من قبل في قصائده الشهيرة .

الرومانسية الغنائية في شعر عميحاي

ان تجربة الرومانسية في شعر عميحاي ، لها جذور واضحة من خلال التغني بالمراة روحا وجسدا . لكن مهما اختلفت الآراء حول التمثيل الرمزي لوجودها في شعره ، فإن التدليل على معنى معين لهذا الرمز في القصيدة يغدو موضوعا خاضعا للتاويل ، اذ يمكن أن تكون الرمز لارض

الميعاد ، او هي المراة الحبيبة ، او النموذج المطلق لمصدر الخلق والالهام ولهذا يبقى رمزها جامعا للهويات الثلاث المذكورة ، لان الاثر الفني بأدواته ورموزه يتشكل كخلية فنية متعددة الاشكال والصور ، ولهذا السبب يبدو تحديد ملامح المراة في شعر عميحاي الفنائي امرا في حيازة ماهيتها الرمزية الشعرية . فهي نموذج مطلق للمراة المثال وللمراة الرمز الارض ، أو في صورتها الجسدية الحقيقية :

« وداعا وجهك وجه الذاكرة
يتجول صاعدا من عالم الموتى . يطير ، يطير
وجه وحوش ، وجه الماء ، وجه الذهاب .
وغابة من الصفير
وجه الرحم . وجه الطفل
لم تعد لنا ساعات الملامسة
لم يعد لنا ان نقول الآن . الآن .
لك اسم الرياح . مرة زوجة
الاتجاهات . الهدف . المراة الخريف
ما فشلنا في فهمه نفنيه معا . »

يصعب علينا تحديد وجه هذه التي يخاطبها الشاعر ، الحاملة لصفات متعددة فهي المراة الحبيبة ، وهي المراة المرموز بها للارض ، وهي المراة المثال وجه الربة أو الملهمة . وأخيرا فان صورتها وجه لكل الاشياء ، يأتي من عالم الموتى ويطير ، ثم يطير الى ان يأخذ شكل الاتجاهات وأخيرا يصبح وجها – لامراة ما – يحاول الشاعر تقديمها الينا بصورة غامضة :

« لك اسم الرياح . مرة زوجة
الاتجاهات . الهدف . المراة . الخريف . »

وكما ان العديد من الشعراء الصهاينة الآخرين مثل الترمان وشلونيسكي وابراهام وهم كلهم تغنوا بالجبال والسهول وحظيرة الابقار وقطعان الاغنام ، فان عميحاي ايضا شاعر العبرية البارز ، والصهيوني الذي ما نسي يوما ان يذكر الصهاينة بأرضهم الموعودة ، نجده قد اخذ الكثير عن اساليبهم الشعرية ، وخاصة تأثره الواضح بروحهم الغنائي . ولكن في اطار لغة حديثة وتقنية شعرية متطورة مدعمة بثقافة ووعي فنيين :

« كانت في الصيف او في اواخره
وسمعت خطواتك وانت تمشين من الشرق الى الغرب
للمرة الاخيرة . وفي العالم
ضاعت مناديل وكتب واناس . »

ان صورة الكائن المؤنث الذي يحاول ان يصوره لنا الشاعر فجأة ما تغيب هويته الصورية ثم ينتقل بنا الى تصوير مشهد آخر يغطي ويسحب وراءه طيفه من ارادة التعبير عنها .

« وفي العالم
ضاعت مناديل . وكتب وأناس . »

وهكذا تضيع صورة من يحب ويعشق . بين وقع خطواتها الاخيرة وبين ضياع المناديل والكتب والناس في العالم

أو كما في هذه الابيات ذات النبرة الرومانسية حين يقول :

« كيف يقول المرء : أحب بلغة الماء
وماذا نكون نحن بلغة الارض .
وماهي الطريق والسير عليها فماذا يعني ذلك ؟
قلة ماء الريح الاخيرة . أي نبي ؟ . »

ان هذا الاستشراف الشعري المتعالي في قصائد عميحاي الغنائية قلما وصل اليه شاعر صهيوني معاصر ، باستثناء « بيالك » .

ان الشاعر في هذه الابيات يتساءل : كيف يحب المرء بلغة الماء وماذا يكون النحن بلغة الارض . وذلك دون ان يفصح عن المعنى الذي يريد التعبير عنه ، معنى التعبير عن الحب الذي تضيع ملامحه في اغوار نفس حيرى مثقلة بالذكريات البعيدة والاحباطات اللامتناهية التي تتلاشى في عالم لا تعرف كيف تسلك فيها طريقها . ولكن هذا الحب او العشق احيانا ما يجد طريقه الى العيش في مساحة الروح العاشق ويرقص مثل امواج البحر حين تاتي العاصفة :

« في منتصف هذا القرن التفتنا لبعضنا
رايت جسدك يلقي بالظل ينتظرني بالاشرطة الجلدية لرحلة طويلة وقد ربطت على صدري
نطقت حمدا لافخاذك الفانية / ونطقت حمدا لوجهي العابر
ربتت على شعرك في اتجاه رحلتك . لمست لحمك . نبوءة نهايتك .
لمست يدك التي لم تتم ابدا . ولمست فمك الذي يمكن ان يغني .
غبار من الصحراء خطف المائدة
التي لم تاكل عليها .
ولكن باصبعي كتبت عليها حروف اسمك . »

ان هذا التصوير الشفاف لصورة الحبيبة تكتشف فيه صورتين مختلفتين تفيان ــ بالغرض المزدوج ــ للمرأة الحبيبة / او المرأة الرمز الوطن ــ الارض) اذ نلمس هناك عبارات عديدة تدل على هذا الازدواج: يدك التي لم تتم ابدا) (في منتصف هذا القرن الخ . . .) فهي ذات

دلالة موحية بصورة المكان وصورة المرأة لقد جسد عميحاي في اشعاره هوية المراة / هوية الارض والطبيعة في اطار رؤية رومانسية محدثة كان احد اقطابها وممثليها الرئيسيين في الكيان الصهيوني . واذا كان عميحاي قد استطاع ان يخفي مشاعره الصهيونية وراء ظلال لغته الشعرية وجمالية صوره : فان العديد من الشعراء الصهاينة ذوي المواهب العادية ، لم يتوصلوا الى تغطية اقنعتهم بالكلمات والمعاني الشعرية الضحلة فقد ظلوا خارج عالم الشعر الجيد .

ان يهوذ اعميحاي شاعر يهودي . يعرف كيف يكون صهيونيا ومتى يكون شاعرا ذا مقدرة شعرية عالية . فهو الشاعر الذي عمل لصالح الحركة الصهيونية بفعله السياسي وكلمته الشعرية . ان شعره جميل ، ولكن عقله المشدود الى النزعة العنصرية الصهيونية لم يخدم الشعر ولا الانسانية الروحية ، بل سقوطها .

* * *

شعر

تجليات

عصام ترشحاني

قصة :

الامتحان

سعيد سالم

الحب المستحيل

لوسي سلاحيان

شعـــر :

تجليّـات

عصام ترشحاني

«زنزانـة الحلـم»

مـع الحلـم يبقـى
سـجين الفـراشِ
وفــي راســهِ ،
رعشة الضوء ... والرعدِ ...
مـن كـلّ مـوتٍ
اليـه القصائد تسـعى ،
الخـرائبُ فـي زينـةٍ ...
والمرايـا ...

تراهُ اذا حاورتْ صوتهُ

وردةٌ لا تنام

يقوم بعينين كشافتينِ

الى نطفة السرّ

يبعث حوريةً

من بروق الحياة

ويمعن في مخمل الليل ،

والليلُ .....،

في خالقٍ من سهادْ

تراهُ اذا ما استوتْ

قبة للخصوبة

يشعل بالماء حلماً .. مضى

ثم يرسو ...

على حانةٍ

في السرير الخرافيّ

يشرب لذّاتها

جرعة جرعةً ....

وينام .

١٠/٦/١٩٨٤

« الجحيم المبكر »

ضفةٌ من محارٍ ونار
سالت عن الطينِ ،
والخيزران الحزينِ
رايت النواقيسَ تلقي
على زهرة الاختبار ،
شعاع الثمار
ضفة من بياض
وعشب وسكر ...
ضفة لاقتراف الندى
هل اقول ادخليني ؟
دخلت عليك
رقصت ، رقصت ،
وادمنت شربي
فقام اليّ الذي
وجههُ من عيونٍ
وزرع ونور
وشدّ عليّ
اصطفاني ،
وقال : ـ تدثر ...
فاوغلتِ بيني
وبين ردائي

فقال الذي نفسه
في الرحيق الحلال : ـ
اخرجا من دمي
عاريين اخرجا
للجحيم البكر ...
اني وهبت من الارض
ما ينفع الحب ،
او يحرق العاشقين .

١٩٨٤/٦/٧

((انه الشعر))

حملتك طقسا
لحادثة لا تموت
ونارا ...
لعرش ابتدائي ...
حملتك حرية للجراح
مرجا ..
يجوب غنائي
انا المتجلي ..
احرر من صخرة الخوف
قلبي ..
واصعد نحو حماس البراري
انا المتجلي

على هضبات الهوى
فاطر الغيم بي
يتلي قبرات الغبار
يمسك الارض من جوعها
مانحا للندى
سلطة الانتصار
انا المتجلي
على غامض البحر .. امضي
واترك شيئا من السحر
للماء والعشب والملح
اترك افواسي المزهرات على الرمل
تشدو ..
وفي شهوة ،
تبلغ النار
تستل الوانها
في دم السنبلة
والفصول التي
نسيت خصبها ...
قرب اسطورة قاحلة
فاجعلوا الحلم والاسئلة
سورة الاكتمال بها ...
واسكنوا القلب من خافيات الرؤى
انه اخضر الشعر
في قنبلة ...

١٩٨٤/٦/٢٢

النشيد المكسور

تصلين الى النار
ولا اصل الجنة ،
هل تعبرينَ
الى
زهرة الاوجِ
اعبر للدهشة المهلكة ؟
ليتها الشهوة الحالكة ..
تدخلين الى
حانة الشعر ،
أهرب

عذراً لنيد العسلْ ..
وعذراً
صبيّة خمر الأزلْ ...
سأهجر هذا الفناء اللدودَ قليلا
وأروي لأفراسي الشارداتِ
ـ من الحلمِ
حتى النهايات ـ
أسرار من يسلب النجم
أوراقه ...
في رماد القبل ...

شباط ١٩٨٤

قصة

الامتحان

سعيد سالم

كانت لجنة الامتحان منعقدة في غرفة نوم . أجب اجابات علمية قاطعة عن ثلاثة أسئلة من بينها السؤال الرابع .. لم يكن هناك مراقبون . مسموح للممتحنين باصطحاب المراجع واستخلاص الاجابة منها . مسموح لهم أيضا بتبادل الحديث والمشورة على أن يكون الصوت هامسا لا يسبب ازعاجا للاخرين . الاضاءة خافتة وألوان الحجرة تتميز بدكنة غالبة . بعض الممتحنين يعرف البعض الاخر والبعض لا يعرف أحدا . المشاعر تتباين بوضوح على وجوههم . هي مزيج من الخوف والاطمئنان والقلق واليأس واللا مبالاة والسعادة والتعاسة واللا شيء .

تشـت ـ كعادتي ـ ورقة الامتحان قبل الشروع في الاجابة ، لكني فوجئت هذه المرة بأنها لا تحمل رائحة الطباعة . نظرت الى ساعتي بقلق . وهناك زمن محدد للامتحان . لست أدري تماما ما نوع الكارثة التي تنتظرني لو أخفقت في الاجابة . عاودت النظر الى ساعتي ، ثم يمينا ويسارا . الجميع منهمكون في الاجابة دون أن ينظر أحدهم الى الاخر . خيل الى أنهـم يضمنون كسب الوقت بالاجابة عن السـؤال الاجباري الرابع : « هل تعلم أنك ستموت يوما ما ؟ » .

☆ ☆ ☆

انني واع تماما أنني أحلم ، دون أن تنتفي حالة الحلم لمجرد وعيي بها . أؤكد من الآن أنني أحلم .

☆ ☆ ☆

قررت أن أفعل مثلهم فأمسكت بقلمي وأجبت عن السـؤال الرابع . لم يستغرق الامر أكثر من ثوان . لكنهم كانوا منهمكين في الكتابة بشكل أثار دهشتي فرحت أتأمل في أرجـاء غرفة النـوم . مصباح أزرق في الركن الايمن . ستارة خضراء في الواجهة . قفص أصفر صغير علـى خوان يتقافز بداخله عصفوران صغيران . نظرت الى ساعتي فوجدت عقاربها تدور في اتجاه عكسي . سألت زميلا يجلس الى يميني عـن الوقت . رآني وسمعني جيدا ، لكنه تجاهلني ببرود شديد كما لـو كنت أسأل نفسي .. عدت الى ورقتي . هاأنذا أجيب ثلـث أسئلة الامتحان تماما . بقي أن أعرف أي الاسئلة الثلاثة أترك وعـن أي سؤالين أجيب .

قررت أن أبدأ بالاجابة عن السؤال الاول . بحثت في مراجعي عن كلمة السعادة أضعت وقتا طويلا دون أن أعثر على مفهوم محدد لهذه الكلمة الواردة بالسؤال . خدعنا في الامتحان . لست أذكر أن هذه المادة كانت مقررة ضمن المنهج الذي لم أعد أذكر منه شيئا . التفت الى زميلي الجالس عن يساري والذي كان يمتلك مراجع كثيرة العدد كبيرة الحجم بشكل ملفت . سألته :

ــ هل وجدت اجابة علمية عن هذه الكلمة الغريبة ؟

أجاب بعصبية وهو يشيح بيده كما لو كان يخشى على نفسه من أجرب :

ــ هس .. اسأل زميلك الآخر .

استفدت من تجربتي السابقة مع زميلي الآخر فلم أسأله . سألت جاري الذي يجلس أمامي فأدار وجهه ناحيتي وظل يضحك بنغمة متصاعدة حتى صار يقهقه بعنف شديد أثار ذهولي . التفت الى زميلي الخلفي ففوجئت بأنه يبكي بحرقة شديدة محاولاكتم أناته الملتاعة . ما المسألة تماما ؟ . ماذا نفعل هنا ولماذا جئنا الى هـذا المكان وما هذه الاسئلة التافهة ؟ .

فجأة وضع الجميع أقلامهم . تسمر كل في مقعده وبدوا كأصنام راسخة . بعد ثوان انطفأ المصباح وعم الظلام في الغرفة . دبت الحياة في الاصنام وبدأوا يتسامرون . أخرج أحدهم قرطاسا من اللب وأخذ يقرقز بنهم شديد . سأله جاره أن يعطيه قليلا منه ليشاركه القزقزة فرفض بابتسامة غاية في الظرف . سألت زميلي الضاحك :

ــ هل سيحتسب وقت الظلام ضمن الوقت الكلي ؟

أجاب بتقطيبة غير عادية بدت على جبينه .

ــ أعتقد أنه لن يكون هناك ظلم في هذه الغرفة .

ــ هل تقصد غرفة النوم ؟ .. اني أسألك عن الظلام لا عن الظلم .

ــ وأنا أقصد غرفة الامتحان .

ــ وبماذا تبرر اعتقادك ؟ .. انني لا أفهم شيئا !

ــ لان الاشياء هنا تبدو منطقية الى حد كبير .

لكني قرأت في صحيفة أوربية عن رجل قال انه يمارس السعادة القصوى التي لم يمارسها انسان من قبل في اللحظات التي سبقت انتحاره بالغاز . لحظات النشوة واللذة وجنون المرفـة حققت له سعادته ثم مـات .

فجأة سمعنا صوتا مهيبا يأتي برجع مصاحب يقول :

ــ قررنا حذف السؤال الاول .

التهبت أكف الممتحنين بتصفيق شديد . كان بعضهم قد نام في غمرة الاحداث . استيقظ البعض الاخر على الضجيج وظل الباقون نياما . اختفى الصوت وعاد الضوء من جديد فتنبه الجميع بما فيهم النائمون . بدأ البعض يسكون بأقلامهم استعدادا للاجابة . ضاعت الان فرصة الاختيار بعد أن حذف سؤال من الامتحان . ولما كان من المطلوب أن نجيب عن ثلاثة أسئلة حذف منها واحد ، فان الشك بدأ يدب في عقول الممتحنين وعادوا الى وضـع أقلامهم وتبادل النظـرات الحيرى فيما بينهم ... ثم تبادلوا التعليقات :

ـــ هل حذف السؤال لصالحنا أم لصالح الصوت المهيب ؟

ـــ نحن غير مسئولين عن استبداده .

ـــ يمكن أن نسأله :

ـــ وأين هو ؟

نظرت الى ساعتي فوجدت عقاربها المعكوسة قد توقفت تماما عن الحركة . عجيب أمر هذه الساعة . لو شغلت نفسي بها لانسرق مني الوقت دون أن أدري .

★ ★ ★

قررت الاجابة عن السؤال الثاني ... اجابتي الحقيقية هي : « لست أدري » .. ولكن شرط الاجابة المطروح أن تكون علمية قاطعة أي اما نعم واما لا .

رأيت أن أجيب « بلا » بعد تردد ، لا لانني صادق مع نفسي وانما لانني يجب أن أختار وإلا واجهت الكارثة التي لا أعرف عنها شيئا ، ولهذا فقد أجريت قرعة عشوائية بين النعم واللا ففازت الثانية .

ترددت في كتابة الاجابة لاحتمال خطئها وما يترتب عليه من سقوط . تعمدت الانفصال التام عن الاخرين . لم أنظر اليهم على الاطلاق . كنت فقط أسمع بعض الهمهمات والهمسات الحائرة . فجأة انطفأ النور مرة أخرى وواصل صاحبنا قزقزة اللب . عاود طلبه الاسبق فرفض الطلب للمرة الثانية بنفس الابتسامة الظريفة . أخذ البعض يتسامرون وتصاعد الشخير من بعض المقاعد بأنغام متباينة متتابعة لطيفة . أضيء النور

فجأة فوجدت كومة من الساعات ملقاة على الارض فألقيت بساعتي على الفور ، وتعجبت لانها لم تتحول الى أفعى فبدأ النوم يداعب أجفاني .

تراءى لي أنني أضاجع امرأة أشتهيها منذ زمن طويل وكنت أخشى مصارحتها لعلمي بتمسكها بالفضيلة . قالت لي انها بالفعل فاضلة ، ولكنها كانت تنتظر مني الاشارة كي تتخلى عن فضيلتها ، فعندها أن الاوهام تعطل حركة الحياة وكلما زاد الجهد المبذول لتبديد هذه الاوهام لذت الحياة وطابت واستحقت أن تعاش .

بهرتني وجهة نظرها . ومع هذا فقد أجبت « بـلا » بعد تردد ، اعتمادا على نتيجة القرعة العشوائية وبدون أن تواتيني ذرة من شجاعة أستعين بها لمعرفة ما اذا كانت تستحق مسألة الحياة كل ما يبذل فيها من جهد وما يتحقق فيها من نجاح أو فشل . صحوت على الصوت المهيب يقول :

ـــ قررنا حذف السؤال الثاني .

وأفقنا جميعا على ظهور الصوت واختفائه حين دوى بالقاعة تصفيق شديد ... لم يبق اذن الا السؤال الثالث . قمت أبحث عن ساعتي بين الساعات الملقاة فوجدت كل الساعات قد توحدت شكلا ونوعا . اخترت بعشوائية احدى الساعات فوجدتها بلا عقارب ، اخترت ثانية وثالثة دون جدوى . كل الساعات بلا عقارب . لم يعد أحدنا يعرف كم مضى من الوقت وكم تبقى على نهاية زمن الامتحان .

عدت كالتائه الى مقعدي أحاول الاجابة عن السؤال الثالث . لم أكن أشك لحظة واحدة في فضيلة تلك السيدة التي تراءت لي منذ

قليل فيما يشبه حلم اليقظة الذي انبعث مستولداً من قلب الحلم الكبير : حلم الغرفة والامتحان والاسئلة التافهة والكارثة المنتظرة حال الرسوب . ربما أكون قد ضاجعتها بالفعل قبل دخولي هذه الغرفة أو أثناء تواجدي بها دون أن أدري . لكن الحقيقة الصارخة أنها تعرت أمامي من ثيابها ـ وهذا في الشرق عيب ـ وألقت بنفسها بين أحضاني وانتهى الامر كأن شيئاً لم يكن وما زالت حركة الحياة دائبة سريعة جامحة عمياء ، وما زالت حيرة السؤال الثالث تحاصرني .. هل أشك أم أقبل حيث أجمع الاخرون على القبول ؟ !!

تململت في مقعدي وشعرت بيأس شديد من محاولاتي الفاشلة لمنطقة ما يحدث في هذه الغرفة أو خارجها أو داخلي . قررت أن أغادر الغرفة الى القاعة الملحقة والقاعة الملحقة الى الخارج والخارج الى ما بعد الخارج . كانت أعصابي مخدرة تماما حين اتخذت هذا القرار فوقفت متباطئاً دون أن يفر مني العزم حتى على الوقوف . لكنني لحظت أضواء باهرة قد سطعت في أرجاء الغرفة فجأة وعيون الممتحنين محملقة بفضول شديد ودهشة أشد في اتجاه واحد حين ظهر رجل جميل يمشي بوقار وعلى وجهه ترتسم ابتسامة ساخرة زادت من تخدير أعصابي فوجدت نفسي أجلس على مقعدي بهدوء واقتناع شديدين . قال الرجل بصوت جميل :

ـ لقد جئت مفوضا من صاحب الصوت المهيب بأن أخبركم أن السؤال الثالث قد ألغي أيضا .

عم الضجيج بالمكان وبدأ الجميع في غاية الفرحة • أخذوا يهنئون بعضهم بحرارة ، ووافق صاحبنا ــ لاول مرة ــ أن يعطي جاره قليلا من اللب • اقترب مني صاحب الوجه الجميل • وضع يده على رأسي فبدوت تحتها كقطة وديعة هادئة وقال مخاطبا الجميع :

ــ ان الامتحان صعب ، ومن الافضل أن ينصرف كل الى حاله خارج القاعة بشرط واحد • صاح الجميع بلهفة :

ــ ما هو الشرط ؟؟

قال صاحب الوجه الجميل :

ــ ألا ينسى أحدكم يوما أنه جلس بهذه الغرفة وواجه الاسئلة •

سأل أحدهم :

ــ ألسنا مطالبين بالاجابة عن الاسئلة بعد الخروج ؟

فأجاب الجميل :

ــ لكم مطلق الحريــة في الاجابة أو الصمت .• ولا تنسوا أن تذكروني ـ فلا مفر أمامكم •

فكرت أن أسأله عن صاحب الصوت المهيب ، لكنني نسيت •

☆ ☆ ☆

انني واع تماما أنني أحلم ، دون أن تنتفي حالة الحلم لمجرد وعيي بها •• أؤكد مرة ثانية أنني أحلم •••• وغرفة النوم واسعة • مصباح

أزرق في الركن الايسن ، ستارة خضراء في الواجهة . قفص أصفر صغير على خوان يتقافز بداخله عصفوران صغيران .. رأسي على وسادتي ، وتداعب أذني أنفاس هادئة هانئة تصدر عن يميني من أنف منمق صغير ، تعلوه عينان مغمضتان بأهداب سوداء .. وقد تبددت الاوهام على شفتين حالمتين لتعاود الحياة حركتها .. سريعة .. جامحة .. عمياء !

★ ★ ★

الحب المستحيل

لوسي سلاحيان

في ليالي الشتاء الطويلة الباردة ، وأنا أحس بثقل الايام والاعوام على القلوب التواقة الى الحب ، أتساءل : كيف أتيح لهذا الحب المستحيل أن يتسلل الى قلبي ، ويبني فيه عشا ، وأنا وسط عالم من المكفوفين ، أعيش بين أناس قد فقدوا أبصارهم ، فأحداقهم متجمدة ، ونظراتهم لا تعبر عن شيء ؟ ثم ما ألبث أن أجيب نفسي بأن ذلك كله كان قد أمسى عادة بالنسبة الي !

☆ ☆ ☆

كانت الاقدار قد عاجلتني بوفاة أبي عقب فقداني أمي ! فاقترح بعض أصدقاء الاسرة علي بأن أتوظف في مؤسسة ترعى المكفوفين ، فأقيم

حيث أعمل ، فمثل هذه المؤسسة هي ــ كما رأوا ــ آمن مكان لشابة في ربيعها العشرين ! وطوال عشرة أعوام من العمل ، لم أحس بجديد في عالمي النفسي الخاص • وماذا يمكن أن يقع لفتاة مبصرة قد حرمتها الظروف من أن تتمتع وهي في محيطها هذا بأية نظرة من تلك النظرات التي تشع حرارة وحياة ؟ !

الجديد الذي وقع حولي أن القس المشرف على المؤسسة قد استبدل به قس آخر ، كان شابا يطفح حيوية ، ذا وجه ممتلىء باسم ، وعينين سوداوين كأنهما نجمتان في ليل ، وشعر جعد قد دأب على أن يفرقه في منتصف رأسه يمنة ويسرة ، وأما شفته العليا فلا تكاد تغطي مقدمة أسنانه غير المنتظمة •

أخذت أحضر دروس الديانة ، المعتادة ، التي يعالج فيها مسألة وجود الله • وكان في هذه الدروس ، التي آخذها عنه كتابة ، حريصا بها على إقناع أولئك الذين يعيشون في الظلام ، بأن يتقبلوا ، برضى كامل ، الواقع الذي أرادته لهم المشيئة الالهية . وكنت أنقل أقواله ، دون كبير اهتمام ، لكي أقرأها على التلامذة المكفوفين •

ذات يوم ، وبينما أنا أسير بقلمي مسرعة على الورق أكتب ما يمليه علي المشرف الشاب ، حدث أن نفد المداد في قلمي ، فمزقت سنه الورقة حيث توقفت •

رفعت رأسي حائرة •

فاذا عينا المشرف تحتضناني بنظرة ذات معنى • كانت يدي مرفوعة بالقلم في الهواء ، فتعلقت عيناي بتلك النظرة ، التي نفذت الى أعماقي ،

لتجد هناك قلبي لها بالانتظار ، وتسلسل في صدري ، فجأة ، حرمان طال كبته عبر سنين • وساورني اعتقاد بأني تمكلت سعادة لا حد لها • وابتسمت ، وأنا أحس وجهي يتضرج • فبادلني الابتسام بمثله • وأخرج قلمه من جيبه ، وقال :

ــ دونك قلما ، يا « زوفينار » !

وناولني اياه • فلمست ، في ذلك ، اصابعه يدي ! فأسلمني مـا اعتراني من الخجل ، بسهولة الى الاضطراب • ثم لست أدري كيف تمتم فمي بكلمات شكر مبهمة !

بعد انصراف المشرف ، استولى علي تفكير غامض جامح • ما هذه المشاعر التي خالجتني ، وجعلت الدماء تفور في عروقي ، فأرتعش • وأذهل عن نفسي ، وأنشي ! ان قلبي لم يخفق على هذا النحو خلال الاعوام الثلاثين التي عشتها ! وهل في وسعي أن أوقف تدفق هـذه المشاعر ، وأنا أعرف جيدا أن ليس من حقي أن أنعم بمثل تلك النظرة ؟ ان في نفسي أن أطير ، محلقة الى تلك اللحظة السعيدة ، لحظة انتقالي من عالم المكفوفين الى دنيا الاحلام • ان قلبي ، أنا ذات الثلاثين عاما ، ليخفق خفقان قلب فتاة في العشرين !

وكنا قد اعتدنا أن نصحب ، أيام الربيع ، تلامذتنا المكفوفين ، في نزهة في الهواء الطلق الى ظاهر المدينة • وكان ذلك من المتع النادرة التي تتوافر لي في حياتي الكئيبة • ولقد تطلب مني الاعداد لهذه النزهة أن أجتمع بالمشرف بعض المرات ، لاحظت خلالها أن الفرح كان يغمرني

كلما التقيت به ، فكأنني حققت لنفسي أمنية غالية • وأحس دبيب نشاط يسري في جسمي وروحي جميعا •

أخذت أشم ، في الحقول التي نمضي اليها ، عبق الربيع الحق • وتحت أشعة الشمس الدافئة ، أمسيت أرى المروج وقد ترصعت بقطرات الندى فكأنها حبات زمرد • وفوق رؤوسنا تتهادى الغيوم الرقيقة ، تتعانق تارة على استحياء ، ثم ما تلبث أن تنفصل متابعة مسيرتها •

والمشرف يبذل جهده في أن يصف للتلاميذ جمال الطبيعة ، وكأنه شاعر يسري بروحه في السهول ويحلق في السماء • والمكفوفون ، وهم في ظلمتهم الأبدية ، يصغون ، بجوارحهم ، الى هذا الوصف البديع ، فكأنه موسيقى حالمة تنفذ الى أعماقهم •

وأنا ؟ اني لأصغي ، أيضا ، منتشية ، ذاهلة عن نفسي ، وأنا أسير بينهم ، فكأن ليس للتلاميذ وجود ، حتى ليخيل الي أني وحيدة معه ، ومع قلبي الذي تفتحت براعمه مع مطالع هذا الربيع •

والآن ، وأنا في سريري ، أتملى النظر من لحافي الذي تغمره رسوم الأزهار ، وأغرق في أحلام وردية ، وتحملني الخواطر فأرى المشرف بين التلاميذ ، يحدثهم عن جمال الكون الخارق • أراه بعيني واضحا جليا ، مثلما كنت أراه وهو بين المروج الخضر الزمردية ، أخاطبه الآن كما لم أجرؤ على مخاطبته ساعة النزهة • وأستجمع خيالي كله لكي أحافظ على صورته الجذابة أمام ناظري •

الا أن هذه الصورة ما تلبث أن تتلاشى .

فأنهض الى نافذتي ، حافية القدمين ، عارية الصدر ، أريد أن أراه . وأتلقى لثمات الريح على شفتي . ثم أنطلق بخيالي محلقة في الفضاء ، حيث القمر والنجوم التي فقدت ضياءها وبهاءها حيال ايماضة عينيه السوداوين .

☆ ☆ ☆

وتمضي الأيام . وأنا أتابع سيري وراء حب مستحيل .

لم أعد أنام الا لماما . وفقدت شهيتي الى الطعام .

أتراها نزعة أنانية ؟ أم هي استجابة تلقائية لما يضطرم في داخلي من رغبات ؟ ويتضرج وجهي ، تحت وطأة ما أحسه من عذاب نفسي .

وحيال نظرته النافذة ، أتساءل : ألا يخون الراهب العهد الذي قطعه على نفسه ؟

أفكر في ذلك ، والألم يفري جوانحي . ولكنني أستشف في نظراته، التي يحاول أن يلسلها بعيدا عني ، حزنا عميقا ، لست أشك في أني أنا باعثته !

استولت علي رغبة وحشية ، جعلتني أحترق في جحيم الانتظار . اني لألهث مبهورة الأنفاس . أرى بأم عيني الهاوية .. فأتساءل : أنتحدر اليها باختيارنا ؟

في تلك الليلة ، كان ضوء القمر قد انهمر في كل مكان في المؤسسة . غادرت غرفتي ، تحدو بي مشاعر عذبة . ورحت أتجول في الحديقة ، وأنا غارقة في فيض من أحلام وتصورات زادت قلبي خفقانا .

تلكما العينان الجذابتان ، اللتان أيقظتا في عاطفة الحب ، واللتان تطل عبرهما نفس عالية سامية ، ألا يمكن لصاحبهما أن يكون قد وقع تحت تأثير عاطفة ما ، وأنه يخفيها ؟

ولكن ... أليس هو ذاك القادم نحوي ، الذي يسير الهوينا ؟

أذهلتني المفاجأة ! وبدوت لنفسي أني جديرة بأن أرتكب كل حماقة في الدنيا ، من أجل أن أصل اليه بصدر تعصف فيه اللهفات والأشواق !

سمعته يهتف ، بصوت أقرب الى الهمس :

ــ زوفينار ! ألا ترين أن أريج الأزهار ، الذي يملأ صدورنا في هذه الأمسية الربيعية ، هو مبعث للنشوة ؟

أجبت بلهجة قاطعة :

ــ أجل ، كنت أراه كذلك ، يوم كنت أجهل حقيقة الرغبات المنطلقة من أعماق النفس الانسانية !

وأحسست بنظرته النافذة ، ونحن نرتعش تحت وطأة رطوبة الربيع المنعشة .

يقول بصوته الذي يرشح رقة :

ــ روح الانسان هي مستقر الحب !

فعرتني هزة ، اصطكت لها ركبتاي .

سألته في لهفة :

ـ أتؤمن بالحب ؟

وتلامس أنسام الليل جبيني ، الذي أحسسته يلتهب .

ويجيبني بهدوء :

ـ أجل ، أؤمن بالحب ... الإلهي !

وأتساءل :

ـ والحب الانساني ؟

تراءت لي الأزهار ، المكتسية بلون النار والهواء يحركها ، وكأنها تهزأ بي .

فيبلغني صوته ، وهو يقول بهدوء سابغ :

ـ مع مرور الأيام تخبو جذوة الحب الانساني ، وكذلك سائر ضروب الحب . وأما الذي يخلد ، فهو الحب الإلهي وحده !

استعر في صدري غضب كظيم :

ـ وما رأيك في الحب ... الذي يتغنى به الشعراء ؟ الحب ، تلك العاطفة القدسية التي تخفق بها القلوب ؟

فسألني في عتاب :

ـ وكيف تسمين حماقة الانسان الكبرى ، عاطفة قدسية ؟ ان تلك الحماقة ان هي الا غريزة حيوانية . ان الحب الذي تعنين ، يكف عن أن

يكون حبا متى آن له أن يرتوي . ويسي مجرد غريزة يجهد صاحبها في ارضائها واشباعها ! غريزة حيوانية تدعى الحب ! وهي نقطة الضعف المقيتة في بني البشر !

أعلنت ، غير مالكة زمام نفسي :

ــ ان هذا الرداء الأسود الذي تلبسون ، لن يحول بيني وبين أن أسقط في أحضان هذه الحماقة الكبرى ! أريد أن أقول انكم ، أنتم أيضا . ترتضون هذا الحب ، تحبون وتحبون ! لستم معصومين ولا منزهين . أنتم بشر أيضا . ولكم سمعت عن رهبان وراهبات نقضوا العهد الذي كانوا قد قطعوه على أنفسهم !

وأوشكت أن أفقد السيطرة على دموعي التي ملأت مآقي .

أرسل الي نظرة من عينيه السوداوين ، اللتين خيل الي أنهما تشعان حرارة ، ووضع كلتا يديه على كتفي ، وأخذ يهزني هزا عنيفا .

تراءى لي أن القمر ، الذي يتخلل وهو في عليائه السحب الرقيقة محتسيا منها خمرة ، يرقص لنا طربا .

أطبقت جفني ، في انتظار كله أمل !

وساد صمت ... صمت ثقيـــل ... ثم تراخى الذراعان اللذان هزا كتفي !

وفي هدوء الليل ،

راحت خطواته تبتعد ، وتبتعد ...

وهي تدوس قلبي ، وقلبه ، وتسحقهما دون هوادة !

آفاق المعرفة

اللغة بين الرجل والمرأة

د. قاسم المقداد

الباراسيكولوجيا والحاسة السادسة

نظير بركات

الحلم السر
ملاحظات حول التلفزيون

ترجمة: نوفل نيوف

اللغـــة بين الرجـل والمرأة

د. قاسم المقداد

● اود في هذه المقالة الموجزة التعرض الى قضية هامة وخطيرة . واقصد بها : قضية الاختلاف في التعبير بين الرجل والمراة . لان القضية مطروحة ، بل بالاحرى موجودة .

المساواة بين الرجل والمراة اضحت قضية مفروغ منها ، ولا يمكن التراجع عنها في اي حال من الاحوال . لكن طرح الشعار شيء وتحقيقه شيء آخر .

لا شك ان المرأة قد حققت عدة مكاسب هامة في السنوات الاخيرة على كافة الاصعدة : فهي عالمة ، وهي وزيرة ، وهي باحثة .. الخ ..

لكن هذه المرأة ـ ومعها الرجل المهتم بقضاياها ـ تنبهت الى حقيقة هامة : هي انه على الرغم من المكاسب التي حققتها ، فقد بقيت سجينة نظام يجعلها تتنازل في أكثر الاحيان عن بعض المكاسب التي حققتها ، واقصد بذلك **النظام اللغوي** ، نظام اللغة . لدرجة ان لغة أجنبية كاللغة الفرنسية لا تزال تفتقد الى كلمة تؤنث بها كلمة وزير . ولا يزال الناس يخاطبونها أو يتحدثون عنها بالسيدة الوزير !
ومثل هذا المثال كثير .. وهذه ظاهرة هامة وخطيرة كما ذكرت ، تنبهت اليها بعض المهتمات بهذا الموضوع في فرنسا ،وأمريكا . وهي مدار بحث ونقاش حتى هذه الساعة .

ان لهذا الامر دلالته : هي باختصار رفض اللغة ، التي هي مؤسسة ذكرية ، اذا جاز التعبير ، الانصياع لتطور المجتمع ، وهذا يعني بصراحة رفض الرجل للمرأة او بالاحرى رفضه وضع المرأة في هذه الدرجة العليا من السلم الاجتماعي . على الرغم من تظاهره بعكس ذلك .

قد نكون ، في لغتنا العربية قد تغلبنا على هــذه الاشكالية وقلنــا (السيدة الوزيرة ، أو النائبة .. الخ) لكن ذلك لا يعني أن لغتنا العربية لا تعاني من نفس الاشكالية في نواح أخرى او اماكن اخرى من اللغة .

ان تصلب اللغة في موقفها هذا من المرأة يعكس تصلب الرجل القائم على هذه المؤســسة منذ بدا تنظيمها وحتى السنوات الاخــيرة ، ازاء المكانة الجديدة التي تحتلهــا المرأة في الحياة الاجتماعيــة والسياسية والاقتصاديــة .

ان اللغة لا تزال تشكل حاجزا يصعب على المرأة تجاوزه بسهولة . يتضح ذلك خلال العديد من التعابير والمفردات التي تعتبر محظورة على

المراة .. أما الرجل فلا تشكل هذه اللغة نفسها عقبة هامة امامه . ونلاحظ أن وقع الشتيمة الملفوظة من الرجل ، على أذن السامع أقل وطأة منها لو كانت صادرة عن امراة ولا حاجة بي هنا للتذكير بذلك ، فكلنا يعرف ذلك . والمضحك في الامر هو انني لا استطيع ضرب امثلة في هذا المجال لخوفي من أن تصدم مثل هذه العبارات أذن السامع . (لاحظوا قهر وعسف اللغة !) ..

حتى وان تجاوزنا هذا المجال ــ الذي يشكل عائقا امام الجنسين في التعبير عنه بصراحة ــ في مجتمعنا على الاقل ــ لوجدنا أن المعوقات اللغوية امام المراة توجد أمامها في المجال السياسي ايضا .

في هذه المقالة سأحاول طرح جانب من هذه الاشكالية ، والتي تشكل ــ الى حد ما ــ مدخلا الى الموضوع الاكبر . يتلخص هذا الجانب في الحكم المسبق الذي في أذهاننا عن حديث المراة : هي تلك التهمة التي نسم بها حديث المراة دائما : **الثرثرة** . كما سأحاول تتبع تطورات هذه الفكرة بشكل عام دون سوق احصائيات معينة ، لانني افتقر الى مثل هذه الاحصائيات . وتكاد تنحصر مهمة هذه المقالة في اثارة مشكلة هي على قدر كبير من الاهمية .

أولا ــ الثرثرة والمراة :

تغص المكتبات الاوربية اليوم بالدراسات المتعلقة بموضوع اللغة والمراة . وتحاول الحركة النسائية في هذه البلدان استثمار موضوع اللغة بشكل واسع من اجل التقدم في موضوع تحرير المراة او تحرر المراة .

ولا اعتقد ان موضوعًا كهذا يكون غريبا عن المهتمين في هذا المجال في بلادنا العربية بشكل خاص وفي بلدان العالم الثالث بشكل عام . فموضوع

المراة واللغة موضوع هام ودقيق وحساس ، ينبغي علينا البحث فيه بهدوء وترو لانه يشكل في نهاية الامر احد المداخل الرئيسية والهامة ان لم يكن اهمها في موضوع تحرر المراة . ان الحديث في هذا الموضوع واسع ومتعدد الجوانب . لذا لن نحاول الا بحث جانب منه في هذه المقالة القصيرة ، قاصدين اثارة الاهتمام بهذا الامر . اذا الجانب الذي سنحاول الاقتراب منه هنا هو موضوع **الثرثرة** . ونبدا بطرح السؤال التالي : **هل صحيح ان المراة ثرثارة أكثر من الرجل ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟** ثم كيف يمكننا التعرف على الفروق الجنسية في اللغة بشكل عام ؟ .

كانت المحادثة قديما نوعا من أنواع الفن الكلامي . فالمتحدث الجيد كان يترك اثرا إيجابيا في مستمعيه حتى لو لم يكن في حديث المتحدث شيئا جوهريا فقد كان يكفي ان يكون المتحدث متحدثا جيدا حتى يثير إعجاب من حوله (وقد نجد هذا الاثر حتى الآن في بعض التجمعات). كان فن الحديث يشكل اذا ، علامة تميز : فالمتحدث الجيد هو متحدث لبق ، لطيف ، قادر على اللعب بالمفردات والجمل ... الخ .

اما اليوم فيبدو ان مفهوم المتحدث الجيد قد تغير ، وصار الحديث الجيد يقاس بمقدار مايحتوي من معلومات ، سواء قلت هذه المعلومات ام كثرت . اذ من منا يملك اليوم الوقت لإضاعته في الاستماع الى حديث فارغ ؟ اللهم الا اذا كنا مجبرين على ذلك (وظروف الإكراه معروفة !).

لكن ذلك لايعني ان الحديث لمجرد الحديث قد انتهى . إذ ما اكثر من يمارسون هذه « المهنة » . ولا ابالغ اذا قلت باننا نكاد ـ هذه الايام ـ نفتقر حتى الى هذين النوعين من الحديث : الحديث لمجرد الحديث ، والحديث المعبر .

لكن لماذا تعزى الثرثرة دائما الى النساء ؟ ثم كيف تجذر هذا المفهوم في اذهاننا ، وصرنا نتهم اي شخص يخلو حديثه من الفائدة بانه

يتحدث كالنساء ، بقصد إهانته أو التقليل من اهمية مايقوله . ولابد هنا من التذكير بأن النساء بالذات قد ساعدن بشكل مباشر او غير مباشر في تثبيت هذا المفهوم من حيث قبولهن بالامر الواقع ، لدرجة انك اذا سألت احداهن عما دار بينها وبين امرأة اخرى من حديث تقول لك : وماذا يهمك انه حديث نساء .

ثم كثرت من ناحية اخرى الحكم والامثال المتعلقة بثرثرة النساء . نحو :

« اللسان هو رمح المرأة ، لا تتركه يصدأ ابدا » .. و « حيثما تتواجد المرأة ، يهرب الصمت » .. او « ان هو الا حديث المقابر .. » لان النساء في بلادنا يخرجن غالبا الى المقابر لزيارة الموتى وهناك تدور الاحاديث المتنوعة والمتعلقة بكل شيء عدا الميت الذي ذهبن لزيارة قبره .. الخ .. .

لو حاولنا استجلاء الاسباب التي جعلتنا نعتقد ان حديث المرأة لايتعدى كونه ثرثرة ، لما وقفنا على سبب ثابت ومعقول . اما بالنسبة للرجل ، فقد ثبت في اذهاننا ايضا انه قد يتحدث ـ احيانا ـ بما يشبه الثرثرة ، لكنها تظل تشكل ، بالنسبة لحديثه حالة . طارئة لاتستدعي المعالجة كظاهرة ! ..

ومن المذهل ان هذه الافكار ليست من شأن العامة فقط ، انما تتعداهم الى بحاثة وعلماء مشهورين في مجالات مختلفة . مثل (بلود، بواس ، فوست ، هاس ، جاسبرسن ـ ليفي ـ شتروس وسابير الخ) اذ لاحظ هؤلاء البحاثة ان النساء في بعض البلدان كن يتحدثن بطرق خاصة تختلف عن تلك التي يتحدث بها الرجل .

وهناك من المختصين في علم الاجتماع البيولوجي ، وعلم الوراثة، وبعض علماء النفس من حاول ، او رغب في قياس الفروق المتعلقة بالقدرة

الجسدية والكلامية والفكرية بين الرجال والنساء بهدف ربطها بالفروق الوراثية والهرمونية او الدماغية . وقد اجريت عدة تجارب نظرية وعملية لقياس القابلية والذكاء عند الفتيات والشبان ، وعند الرجال والنساء البالغين . ويبدو ان التجارب التي اجراها كل من ماكوبي Maccoby وماكوبي وجاكلن ، سوليرو Sollerot ، قد بنيت ان الفتيات ، في اعمارهن الاولى كن يتمتعن بقدرات كلامية تفوق قدرات الشباب ، غير ان هذا التفوق سرعان ماينقلب لصالح الذكور . ويقال ايضا ان الجانب الايسر من دماغ المراة المع من الجانب الايسر من دماغ الرجل فيما يتعلق بالقدرة على الكلام ، لكن الجانب الايمن من الدماغ ، وهو الذي يتحكم بالقدرة على التمثل الفراغي (الفضائي) ، هو اكثر تطورا عند الرجل منه عند المراة . ومن هنا يصعب على المراة تمثل البعد الثالث في شكل او رسم لايحتوي الا على بعدين فقط .

لكن ماذا نقول عن اليابانيين الذين ثبت ان القسم الايسر من دماغ الواحد منهم اكثر تطورا من مثيله عند المراة . هل ندرجهم ، وفق التصنيفات السابقة ، في جنس النساء ؟ . . .

يمكن القول ، بشكل عام ، ان النتائج التي أدت اليها الابحاث السوسيولوجية واللغوية في الستينات والسبعينات من هذا القرن تؤكد أن الجنس (النوع) يشكل متغيرا تبعا للفة او للطبقة الاجتماعية او العرق او حتى العمر . على صعيد اللغة ، لوحظ أن النساء يلجأن في احاديثهن الى اسلوب الحديث اللامباشر ، وهن اكثر ميلا من الرجال الى الاهتمام بالتفاصيل ، واللجوء الى العبارات المكثفة ، وعبارات اللباقة المبالغ بها . كما تفص أحاديثهن بالتوريات والعبارات المغرقة في عاطفيتها . اما على صعيد الاسلوب ، فيلاحظ ان اسلوبهن يفتقر عموما الى التماسك والقوة ، كما يفتقر الى القوة والثقة . وغالبا مايرتبط هذا الاسلوب النسائي بالمكانة الاجتماعية التي تحتلها النساء في عالم الرجال حيث يفتقدن السلطة على الاشياء ، وحتى على انفسهن .

هذه الافكار التي سقناها حول حديث المراة ، تحاول بشتى الوسائل تثبيت الفكرة القائلة بانهن لايتحدثن الا من اجل الحديث فقط . وبالتالي فان حديثهن يخلو من كل قيمة ، ولايمكن الركون اليه لانه غير قادر على الاقناع ولا يتمتع بأي نوع من انواع الجدية .

يبدو ان المراة قد اقتنعت بهذه النهاية التي كرسها الرجل ، من اجل تثبيتها على مر العصور عدا المجتمعات الامومية على ماأعتقد ـ وانها | المراة | قد قبلت بهذا الامر الذي صوره الرجل لها بانه « واقع» لامحيد عنه ، ولا فكاك منه .

الا يذكر ذلك بنظريات المستعمرين حول شعوب البلدان التي استعمروها فيما بعد ؟! . المدهش في الامر ان الحكم على المراة قائم ، سواء تحدثت المراة ام صمتت .

قامت السيدة Aebecher عام ١٩٧٩ ، باستطلاع لدى مائة طالبة وطالب باريسيين (٥٥ طالب و٥٥ طالبة) في السنة الثانية في قسم علم النفس . حيث قدمت لكل منهم استمارة تطلب اليهم فيها تفسير رسم ، قدمته لهم مع الاستمارة ، يمثل رجالا ونساء في وضعيات متشابهة . ومع ذلك فان مجموعتي الطالبات والطلاب قد استنتجوا بأن هيئة النساء ، انطلاقا من الرسوم التي بين أيديهم ، كانت تدل على الخفة ، وتعطي الانطباع بأنهن ثرثارات وتافهات . أما الحكم على رسوم الرجال فقد جاءت ايجابية من الجانبين حيث افاد الطلبة بأن هيئات الرجال كانت تدل على الجدية . وأنها أكثر تعبيرية وأكثر حرارة وقدرة على الايصال او الاتصال .

* أحاديث الرجال وأحاديث النساء ، باشراف ف . أبييشر و ك . فوريل ، منشورات دولاشو ونسله ، باريس ، ١٩٨٣ ، ص ١٧٩ . أشير هنا الى انني استفدته كثيرا من الافكار المطروحة في هذا الكتاب .

من الصعب القول عن هذه الاحكام الا انها احكام مسبقة ، وتخلو من الموضوعية . حتى ان المراة قد ساهمت في الحكم سلبيا على نفسها نتيجة هذا القهر المخزون ، وتلك الافكار المسبقة والمتكونه نتيجة هذا الظرف الاجتماعي او ذاك .

اذا ، ليس من المهم ان تتحدث المراة لكي نحكم على قيمة حديثها ، فحكمنا جاهز . اذ ما ان يعرف السامع بان متحدثه امراة ، حتى يسارع الى الحكم على تفاهة حديثها وخلوه من اي مضمون جدي .

ان هذه النظرة هي نظرة سريعة اذا لم نبالغ وقلنا بانها تافهة سواء كان مصدرها العامة ام « العلماء » . لان ربط الحديث المتعلق بالنساء بجنسهن وجعله حديثا للنساء هو عطية لاتمت الى العلمية او الموضوعية بصلة . ان تحويل الحديث على النساء الى حديث للنساء يشكل مرحلة هامة من مراحل العنصرية : فالعربي في اوروبا محكوم عليه سلفا سواء كان هذا العربي جيدا ام سيئا ، وهكذا الامر بالنسبة للحكم على حديث المراة .

ان تمثل الحديث ــ الثرثرة النسائية يقابله حديث الرجل الذي يعترف له احترامه للمعيار والتزامه قواعد الحديث ، اما حديث المراة ، فهو المتهم دائما بالنقص وبالسلبية ، بنسب تزيد او تنقص تبعا للوسط الاجتماعي الذي تنطلق منه مثل هذه الاحكام .

لايهمنا هنا ان اسباب الاختلاف بين حديث المراة وحديث الرجل تعود الى اسباب بيولوجية او نفسية ــ بيولوجية ، لكن المهم هو هذا التوزيع الذي نضطلع به ونؤكد على وجوده المادي والحتمي . والنتائج تبقى في الحالتين نفسيها : الرجل لايمكن ان يرى في حديث المراة الا حديثا اقل شانا من حديثه هو . قد تكون هذه الصفات موجودة ــ كما قلنا ــ وتميز حديث هذه المراة او تلك ، لكنها ليست حكرا على النساء ،

وليست صفة ملازمة لحديثهن . وخطورة هذا الموقف تكمن ــ كما أشرنا في انه يرى المجموعة عبر فرد واحد ويحكم على المجموع من خلال عينة صغيرة ولاتمثل النوعين (الرجل والمرأة معا) ، وتكمن كذلك في محاولتها اقامة هذه الفروق بناء على اسس بيولوجية ونفسية .

ومن هنا نفهم آلية تكوّن التفكير او الموقف العنصري، القائم على الخلط بين الفرد والجماعة ثم من قال ان الثرثرة هي صفة دائمة لحديث هذا الشخص او ذاك ــ ماعدا بعض الاستثناءات . الثرثرة حالة تتحكم بها المناسبة ، وكذلك الظرف النفسي والاجتماعي ، وحتى الاقتصادي في بعض الاحيان ! . قد يكون من المعروف عن حديث شخص ماطبيعته الجدية والرصينة ، لكنك تجده في بعض الحالات ثرثارا من الطراز الاول (في مجتمع نسائي ، او في بعض اللقاءات السياسية على سبيل المثال .) . ففي المجتمع النسائي يتحول الفرد تماما عما هو معروف عنه ــ كرجل ــ لينخرط في الصف الثاني ويصبح جزءا منه ، ثرثارا لاهداف معروفة . اما المسؤول السياسي فهو مضطر في كثير من الاحيان للجوء الى الثرثرة لسببين : الاول : اما انه يجهل معرفة المستمع بما يتلفظ به ــ وهذه مصيبة ! ــ او انه يريد التخلص من مهمة ملقاة على عاتقه ، ولايهمه في هذه الحالة راي المتلقي لانه لن يترك لهذا الاخير الفرصة لتذكيره بانه يثرثر ــ هذا اذا وجد من يتجرأ على قول ذلك .

كم من الاحاديث التي نتبادلها يوميا ــ نحن الرجال ــ التي لاتخرج عن اطار الثرثرة : انت تجلس وصديقك في مقهى او اي مكان عام ، وفجاة تصل احدى الجميلات . فيتحول الشخص الجالس مقابلها الى خطيب من الدرجة الاولى . فتراه يتوسع في موضوع لا يحتاج البحث فيه الى اكثر من دقيقة . ثم تراه يلجأ الى الاستشهاد بهذا الاديب او ذاك ، او بهذا المسؤول او ذاك الخ .. وحينما يحاول المستمع التعرف الى سر هذا التحول في سلوك متحدثه المفاجىء ، يستدير الى الوراء ، فيرى

السبب . وهنا اما أن يدخل في اللعبة ام لا . فاذ ادخلها فالحديث كله يتحول الى نوع من حوار الطرشان الى ثرثرة .

اذا ، للمجتمع تأثيره الكبير على نوعية وعلى سير الاحاديث . فمن المحظورات مايخضع لها الجنسان ، الرجل والمرأة ، ومنها مايتعلق بالمرأة وحدها فتتضاعف وطأتها عليهـا . ولا اعتقد انني بحاجـة للتفصيل في هذه الامور ، فكلنا يعرف ماللدين ، وماللتقاليد ، وماالطبيعة النظام السياسي ، من تأثير على تفكير وسلوك الانسان .

لقد وجدت المرأة نفسها في نظام لغوي شيد الرجل اسسه (هل هنالك عالمـة لغوية مثل ابن جني او سيبويه او الجرجاني او الزجاجي الخ ... ساهمت في وضع قواعد لغتنا العربية ..؟ معلوماتي المتواضعة في هذا المجال تقول لا .. وإن وجدت فهي الاستثناء وليست القاعدة).

اذا نظام اللغة هو نظام ذكري . يمتثل الانثى كما يمتثلهـا المجتمع .. فكيف لمـن يقبع دون القضبان أن يدافع عن نفسه او أن يضع لنفسه نظاما مستقلا عن نظام السجن ؟ . ولكثرة مايردد : (انـا بريء) ، فانـه ينتهي الى الاقرار بالامر الواقع ويضطر الى التصرف وفـق مايقتضيه هذا الواقع ..

في النهايـة ، لا اعتقد انني اتيت على مجمل تشعبات هذه المسألـة . لكني ــ كما قلت ــ اود طرح المشكلة داعيا كل المختصين والمهتمين ايلاءها من الاهتمام ما تستحق والا أصابنا في موضوع تحرر المـرأة ، ماعناه الشاعر :

القاه في اليم مكتوفا وقال له اياك اياك أن تبتل بالماء

تحرري أيتها المرأة ، لكننا سنظل ممسكين بقيادك عبر اللغة ، من بين اشياء اخرى طبعا .

باريس في ١٥ تموز ١٩٨٤

☆ ☆ ☆

البـــاراسيكولوجيا والحـــاسة السـادسـة

نظـــير بـــركات

في ربيع عام ١٩٦٨ ومن على تخوم روسيا وسيبيريا البعيدة تداعى ما يقرب من مائة باحث وعالم للالتقاء بزملائهم الذين جاؤوا من اقصى مناطق العالم يحملون معهم ارقى ما توصلت اليه ابحاثهم واجهزتهم المتطورة لحضور المؤتمر الموسع (للباراسيكولوجيا) في موسكو. عاصمة اكثر دول الارض علمانية . متحدين بذلك كل ما قيل وما يمكن ان يقال او يلحق بسمعتهم كرجـال علم بدعوى ان ما يعكفون عليه ليس علما وانما شعوذة وسحر واحتيال . وكان هدفهم بكل اصرار الوصول الى حقائق مـا بشان (اموربا راسيكولوجية) طالمـا شغلت الباب العنصر الانساني منـذ فجر التاريـخ ولاتزال .

نشــأة الباراسيكولوجيا :

الباراسيكولوجيا حرفيـاً تعني (علـم مـا وراء النفس) باعتبـار السيكولوجيا (علم النفس) وقد تنبه الانسـان منذ القدم لوجود هـذه الملكات الخفية لديه فتنازعها جماعتان .

١ ــ جماعة ادعت ملكيتها وهم المشعوذون والدجالون والسحـرة فبغضها الناس واستبعدوا حقيقة وجودها ولحق العار بمن مارسها طالما هؤلاء رجالها .

٢ ــ جماعة المتصوفة والاولياء واصحاب البصيرة المشاهير الذيـن دربوها فعلا فانتمشت لديهم هذه الملكات وتبؤوا بها مراكز عالية على مر التاريخ . لكنها بقيت تجارب فردية لا هيئة لها حتى عام ١٨٨٢ حيث اسست جماعة من جامعة كمبردج الجمعية الانكليزية للبحث الروحي . ولنفس الهدف تأسس المعهد الدولي لما وراء الفيزيقا في فرنسـا . وبعـد قليل تكونت الجمعية الامريكية للبحث الروحي .

اما في روسيا فقد اعطى المرسوم الصادر عن الكرملين في عام ١٩٦٣ الاولوية المطلقة للعلوم البيولوجية التي تتضمن الباراسيكولوجيا .

ويعتبر مختبر لينغراد للباراسيكولوجيا والـذي يديره الدكتـور فاسيليف اول مختبر من نوعه في الاتحاد السوفياتي وقد عقد مؤتمران هناك الاول في عام ١٩٦٦ والثاني ١٩٦٨ اذ كان مؤتمراً موسعـاً ــ كما اصبح في الاتحاد السوفياتي اليوم اكثر من عشرين مركزاً تدرس فيـه الظاهرات الميتا عادية وقد بلغت ميزانية هذه الابحاث عام ١٩٦٧ اكثر من /١٢/ مليون روبل .

ماهي الملكات الباراسيكولوجية :

الم ينتابك يوما شعور داخلي بأمر ما ثم تحقق بعد ذلك بساعات ؟

الم تتذكر شخصا لم يسبق ان تذكرته منذ سنين ثم دهشت وهو يربت على كتفك بعدد دقائق ليسلم عليك ؟

الم تحلم مرة بحلم ثم تحقق وكانك كنت تعلم به قبل وقوع حوادثه؟
الم ينتابك كدر يوما ما دون ان تعرف مصدره ثم تلاه خبر يقصم الظهر ؟

اذا كنت قد مارست شيئا من هذا فيعني ان لديك (ملكة باراسيكولوجية) يجب تدريبها وترويضها فهي قدرة تخصك مهمتها الامساك بالحقيقة والقبض عليها لانها توحد بين نصفي عقل الانسان (الوعي واللاوعي) على حد قول كولن ولسن في (الانسان وقواه الخفية) وان امتلاكها هو مايميز الانسان عن الحيوانات الاخرى التي تاكل فقط.

وقد دعاها جونسون في (راسيلان ـ امير الحبشة) حاسة كامنة مستترة ودعاها جـوـ دان (الانا الثانية) القادرة على ان تنظر الى الامام والوراء في الزمان ويتخذ مفهومه هذا من أن هناك (عقلا كونيا تكون العقول جوانب صغيرة منه) .

بينما دعاها الفيلسوف برنارد لونرجان (البصيرة) في كتابه الذي يحمل نفس العنوان ودعاها رونالد هابارد مؤسس علم (فلسفة العلوم) ثيتان كعنصر ثالث يضاف الى الجسم والعقل وهذا العنصر باعتقاده يبقى محصورا داخل الجسم لكنه عندما يكون طليقا يعطينا ظواهر خارجية يسهل تمييزها بسبب امتلاكه مجالا مغناطيسيا عجيبا .

ودعاها البروفسور سوبارسكي حاسة سادسة لايزال العلم يجهلها لكن هذا لا يعني اننا سنقترح تسمية من عندنا لهذه القدرات او الملكات

الباراسيكولوجية والتي اختفت وراء ستار اهمال استخدامها . فاصبحت كيدك التي رقدت عليها ساعات طوال فبدت كانها ميتة لكن العلماء مجمعون ان التدليك والتدريب يعيد الدورة الدموية الى هذه العضلة العقلية .

مؤتمر ١٩٦٨ للباراسيكولوجيا :

عقد هذا المؤتمر في موسكو وقد ضم مايزيد على مائة باحث سوفياتي ووفد كبير من بلغاريا ووفد من تشيكوسلوفاكيا كما مثل الغرب بمندوبين بريطانيين وخمسة ممثلين عن العالم الحر كما مثلت الولايات المتحدة بمندوبين وتضمن جدول اعماله :

١ ــ عروض السيكوكينيزيا (تحريك الاشياء عن بعد) .

٢ ــ الرؤية عن غير طريق الشبكية (ملكات ميتابصرية) .

٣ ــ العصا الكشافة للينابيع .

٤ ــ عرض لآلات تسجيل الظاهرات التخاطرية .

٥ ــ مواضيع فيزيائية وبيوفيزيقية وكيميائية وخطاب لنيقولائيف الذي اجرى اعظم تجربة تخاطرية بين موسكو وسيبيريا .

السكوكينيزيا :

وهي قدرة الانسان على تنقيل وتحريك الاشياء بقوة ذهنه وحدته وقد برزت من اغرب الغرائب في المؤتمر قصة (نليا ميخائيلوفا) التي قدمت للمؤتمر عروضا لا تصدق كتحريك اباريق الماء وكؤوس الخمر والتفاح دون أن تمسها . وقد جاء في تفسير هذه الظاهرة ان الانسان يشع طاقة تختلف قوتها من شخص لآخر ولها حقول قوة تفعل فعل الذبذبة فتحرك الاجسام كما يفعل المغناطيس . فالسيكوكينيزيا والحالة

هذه واقعة فيزيائية فيزيولوجية . وقد صمم جهاز يكشف ويسجل (الهالة) الانسانية التي يتصورون انها تكتنف الجسم وتغلفه كأنها قرينته. وجدير بالذكر ان ما يثير شكوكنا قد سبق ان اثار شكوك المؤتمرين فوظفوا اجهزتهم التي احضروها لفحص الكرسي التي تجلس عليها وطاولتها حتى تناول الفحص اماكن في جسمها لا تخطر على بالك خشية ان تكون قد دست قطعا مغناطيسية . علما ان هذا لو تم فان المغناطيس لا يؤثر في ابريق الماء والتفاح .

يقول الدكتور سيرغييف الذي احضر جهازا متطورا يومذاك : ان مخ الانسان ينتج في الاقسام الخلفية تيارا كهربائيا تزيد فولتاته ثلاث ـ اربع مرات ما تنتجه الاقسام الجبهية . اما عند نليا فكان اقوى بخمسين مرة. والاغرب من هذا ان الميت خلال ثلاثة ايام من موته يحرك مؤشر هذا الجهاز الى نفس الرقم التي كانت نليا تحركه اليه دليلا على تحرر هذه الطاقة ومغادرتها للجسم . وهذا ما يفسر قدرة الميت ساعة احتضاره على التخاطر وايصال رسالته الى امه وذويه وايقاظهم ليلا كما بحلم او يتماثل امامهم بهيئته وثيابه وصوته وهذا ما يسمى بثنائية التواجد وقد سماه كولن ولسن (الجسد العقلي) تمييزا له عن الجسد المادي الذي يموت في الوقت المناسب .

التخاطر :

التخاطر عملية استقبال وارسال بين شخصين غالبا ، انه ترنيم او قل توليف بين عقلين وادق ما يكون هذا التوليف بين الاقرباء والاحباب . فالتخاطر افكار عبر الفضاء تنتقل بترددات ذهنية . ففي عام ١٩٥٩ نشرت الصحافة الفرنسية نبأ مفاده ان الامريكيين يستخدمون التخاطر على متن الغواصة ناتيلوس ، فذعر الروس خوفا من ان يكون الامريكيون قد توصلوا الى معرفة هذا (الراديو العقلي) وسخروه لاغراضهم العسكرية . فاتخذت ابحاثهم بسبب هذا النبأ مسارا جديا كما قيل .

التخاطر اذا امواج فكرية او نبضات منطلقة عبر (الاثير العقلي) تتحدد قوتها بانفعال المرسل او اعتلال الصحة او بايحاء التنويم المغناطيسي ويرافق ذلك فيزيولوجيا تهيج ادرينالي كبير . بينما تكون الحالة المثلى للمستقبل الاسترخاء التام وافضل الطرق لذلك طريقة اليوغيين ويصاحب ذلك فيزيولوجيا افراز الكولين في الكبد . وقد كانت اكبر تجربة تخاطرية بين سيبيريا وفينلاند على بعد (٣٠٠٠) كم بينت امام الحاضرين يومذاك بمالا يقبل الشك اننا البشر محبوون بحاسة سادسة .

وتجارب الطبيب النفسي (نافل ناوموف) مشهورة في مستشفى التوليد حيث كانت الامهات تفصل في جناح بعيدا عن جناح الاطفال . حيث لوحظ ان الام كانت تصاب بالنرفزة والالم عندما كان وليدها يعاني الالم او الجوع وان الطفل بالمقابل كان يبكي في اللحظات التي كانت امه تتوجع وفي محاولة تفسير التخاطر يفترض (جون كاوبر بويز) في كتابه وجود (الاثير النفسي) يحمل الاهتزازات العقلية مثلما يفترض أن الاثير الضوئي يحمل مويجات الضوء . بينما يقول (دافيد فوستر) ان الكون بصورة كلية بناء متكامل من الموجات والذبذبات مضمونها المعنى ولكن ادواتنا ماتزال غليظة لحل شفرة المعاني . بينما يفترض شيرمان (الاثير العقلي) حيث تسافر فيه امواج الفكر مثل امواج الراديو وان كل فرد منا يمثل جهاز ارسال واستقبال .

وتبدو اهمية التخاطر ونحن على ابواب عصر حرب النجوم . واذا صح ما يقال عن الصحون الطائرة فسيكون التخاطر هو اللغة الوحيدة للتفاهم مع الزوار الذين يمكن ان ياتونا من حضارات لا ارضية . واذا لم يكن من حقنا ان نبدي رأيا بهذا الموضوع المحير المدهش لكننا نشعر اننا بحاجتك كقارىء ان تشاركنا الدهشة التي يقال عنها بنت الفلسفة وذلك بتسجيل الملاحظات الاتية :

١ ـ يعتقد العلماء بوجود مائة مليون مجره.في الكون على الاقل تحتوي شموسا لاعداد لها . وان هناك قليل شك في وجود ملايين الكواكب المكونة !!

٢ ـ هل كل ما جاء في كتاب مثلث برمودا لا يمت الى الحقيقة بصلة؟

٣ ـ عثر في اليابان على تماثيل لرجال فضاء يعود تاريخها الى (٢٥٠٠٠) سنة فهل شاهد الناس يومذاك مثل هذه الاشكال ؟

٤ ـ عثر في لبنان على صخور (التكتيت) والتي اجمع العلماء ان هذه الصخور لا يمكن ان تكون قد حدثت الا بفعل اشعاع نووي قديم !؟

العين الثالثة :

الملكات الميتابصرية هل مردها الى وجود عين ثالثة غير مكتشفة ؟

ان علماء السوفييت واطباء العيون عاكفون اليوم هناك على دراسة الغدة الصنوبرية الموجودة داخل المخ والتي يرون انها تمثل العين الثالثة والتي سبق لليوغيين ان وقفوا عندها طويلا .

حتى ديكارت العقلاني الكامل يقول عنها (انها المكان الذي يتم فيه الامتزاج بين نفس الانسان وجسده) وقد تبين علميا ان الغدة الصنوبرية عند البشر والقردة العليا اكبر حجما وانها تفرز مركبا كيميائيا هو (السيروتينين) اكثر كمية من الحيوانات الاخرى ويظن ان لها عاملا قوي التأثير في عملية ارتقاء الانواع وان احدى وظائفها هو كبح النمو الجنسي وزيادة الذكاء . فهل سيأتي الوقت الذي نقرا فيه رسالة موجودة في جبيننا ويبصر العميان بعد هذا العمر الطويل ؟

ان تجارب جد مهمة اجريت في روسيا بهذا الشأن واعطت نتائج طيبة . فماذا سيحمل لنا المستقبل ؟

يقول الدكتور رونالد هابارد (ان الناس آلهة اخترعوا العالم ليكون لعبة لهم) هبطوا اليه ثم اصبحوا ضحايا فقدانهم ذاكرتهم وهكذا وقعوا في فخ لعبتهم .

اما سانت مارتين (١٧٤٣) فيقول ان الانسان بشكل ما (اله) نسي ميراثه او تنازل عنه مختارا فوصل الى القبول بانه مجرد متسـول .

لكن اذا كنا قد اضعنا الميراث فمن المؤكد ان جدتنا حواء لم تأخذه معها في حقيبة سفرها عندما ودعت هذه الارض . فالتفتيش عن الميراث مهمة ملحة لكن ما يخيف حقا ـ ان يبقى الانسان عدو ما يجهل .

بتصرف عن :

علم نفس الحاسة السادسة	لين شرودر ـ وشيلا اوستراند
الانسان وقواه الخفية	كولن ولسن
حواسك الزائدة	هارولد شيرمان
اليوغا	شري بوجندرا
التقمص بالارواح	الدكتور رونالد هابارد

☆ ☆ ☆

الحلم السر
ملاحظات حول التلفزيون

فيكتور شكلوفسكي
ترجمة: نوفل نيوف

الكتابة عن المستقبل امر صعب جدا .

فهي تبدو شيئا غير واقعي . وحين تتذكرها تقتنع انها ذات يوم كانت امرا لا لزوم له .

انني رجل كبير السن للغاية ، وخلال عمري رايت مرات كثيرة كيف يدخل المستقبل في الحياة .

انه يجيء غير ملحوظ .

اذكر بطرسبورغ القديمة في نهاية القرن التاسع عشر . كانت تضاء في البيوت زاوية النافذة فقط . لم يكن هناك كهرباء . كانت المصابيح توضع على قواعد الشبابيك .

ثم علقوا على الجدار صندوقا خشبيا أصفر مزودا بانبوبتين :الاولى للارسال ، والثانية للاستقبال . ذلك كان الهاتف .

اذكر كيف ظهرت السينما في المدينة . كانهم تناولوها من جيب اختبأت فيه زمنا طويلا جدا . وكانت توجد كتيبات صغيرة للاطفال . على كل صفحة كان مرسوما انسان في اوضاع مختلفة . اذا مررت الصفحات بين اصابعك اخذ الانسان يتحرك ، يخلع قبعته وينحني محييا اياك .

كل ذلك كان يبدو مسليا ولا لزوم له البتة . هكذا ، ليوم او اثنين . يصعب استذكار ماضي الفن المقبل .

لماذا ابقيت افضل اللوحات الجدارية داخل اهرامات مصر القديمة ؟

فليس هناك ضوء ولا نوافذ ايضا . لم يكن في وسع احد ان يراها . اذن ، فقد ظنوا انها لن تكون لازمة ابدا .

التلفزيون ، كما السينما ، تنبأت به الانسانية . لعلها كانت تحلم به . ولكنها لم تلحظهما في حياتها .

كانت عندنا في الطفولة لعبة هي المصباح السحري . كانت تظهر على الجدار صور عتيقة ومبتكرة . سرعان ما مللنا اللعبة .

المستقبل يقرع أبوابنا .

ونحن كثيرا ما ننظر اليه نظرتنا الى لعبة لا حاجة لنا بها ، ولكنها مسلية .

كلمة عــن السينما

جاءت السـينما الى بطرسـبورغ القديمة .

شاهدتها اول مرة في الجانب البطرسبورغي ، في ما يسمى « نارودني دوم » . كان ذلك اول بناء اسمنتي في المدينة . كان ثمة مهرجون يصرخون ويعوجون وجوههم على الخشبة ، وكنت استمع . بعدئذ انطفأ النور ، ثم شق الظلام شعاع أزرق متسـع كالقمع .

خفت . من الجدار قبالتي فجأة تحرك قطار .

كان الامر مرعبا ؛ فربما اندفع فجأة ؟ كانت الفكرة الثانية : ولمـاذا هذا ؟ اذ انه لا يجوز الدخول في الجدار ؟

خيل ان هناك في الجدار قوة متحركة أخرى : ولنقل ، عالم الآخـرة تقريبـا .

جاءت السينما الى بطرس بورغ واختبأت في الاقبية ، لانه لم يكن ثمة مكان آخر . فالمكان من اجل الجديد لايكون في الحساب ابدا. كذلك نحن طويلا لم نستطع أن نجد مكانا للتلفزيون في غرفنا . وأخيرا وضعناه في الزاوية(*) . لماذا ؟

لم يكن يؤمن بالسينما احد . كانت تبدو لعبـة ساذجة وتسليـة للفقراء ، عرضا هزليا . وقد سماها ماند لشتام(**) « لعبة رخيصة » .

(*) هنا يلعب المؤلف بالكلمات ، لان تعبير « وضعه او اوقفه في الزاوية » يعني بالروسية عقوبة للطفل في البيت او المدرسة ، حيث يجبر على الوقوف في الزاوية ووجهه الى الجـدار .

(**) ماند لشتام (١٨٩١ ــ ١٩٣٨) من كبار شعراء روسيا في مطلع هذا القرن ــ المترجم.

آخرون كانوا يقولون بأنها ليست الا وسيلة تسجيل . اختراع كتابة لا حاجة لاحد اليها .

لم يكن قد ظهر تشابلن بعد . كل شيء كان في الزمن القادم . ولكن لم يعرف ذلك أحد . لم يعرفوا ، بل لم يكن في وسعهم ان يتصوروا ظهور نقل الصورة والكلمة من بعيد . فالكلمة نفسها لم تكن موجودة في السينما .

مصير الكلمة

عند افلاطون في حوار « فيدر » نجد هذا الحديث . سقراط يقص خرافة ابتكار الحساب والاعداد والالعاب وكذلك الكتابة .

تعرف الكتابة بوصفها وسيلة لترسيخ المعارف . وسيلة للحفظ والتذكير .

ويعقب سقراط على ذلك هكذا : يقول ان الكتابة لا يمكن ان تعتبر ابتكارا . لانها لا تقدم اي جديد . اننا ندون مانقول او ما فكرنا به . فهذه الاحرف التي اصطفت صفوفا متلاحمة على الورقة هي غير قادرة على الكلام ، انها لا تجيب ولا تستطيع أن تعارضك .

واضيف انا : ان الكتابة تقتل الكلمة الحية وتسطحها لترغمها ان تكون غلافا .

ولكن سقراط لم يلتقط ميزة هامة جدا من ميزات الكتابة . فهي لا تكتفي بالحفاظ على معارفنا . بل هي تعطي لعدد كبير من الناس امكانية التواصل مع المعارف . ان اعتراض سقراط قائم على أساس أن الذين يعرفون قليلون ، اي الارستقراطية المصطفاة .

فالكتابة لا تعرف حدودا فئوية .

ان نفس نظام التعبير الذي خلقته السينما الصامتة ـ واضيف من عندي ـ والذي شد ما هو منسي في التلفزيون ، هو انساني عام ومفهوم للجميع .

ولكنني ، على مايبدو ، أستبق الاحداث .

ان دقرطة(*) المعرفة قد دفعت بطباعة الكتب الى الامام ، وطباعة الكتب ساعدت على انتصار الثورة .

لقد قطع التلفزيون شوطا آخر .

جرت مع ديكنز العظيم هذه الحادثة . كثيرا ما كان هذا الكاتب يقرا مؤلفاته امام الآخرين . ورغبة في الاستماع اليه ، ارسلت له ملكة بريطانيا دعوة لزيارة القصر ذات مرة . اجابها ديكنز ببساطة ، اذ أرسل لها بطاقة لحضور القراءة .

على اية حال ، ليس لهذه القصة اية علاقة بالتلفزيون .

منذ زمن بعيد ، قبل سبعين عاما ، اصدرت في بطرسبورغ كتابي الاول « انبعاث الكلمة » . كثيرة هي الامور التي لم اكن أعرفها ، لانني كنت فتيا ، ولم استطع ان اتنبأ ، طبعا .

« انبعاث الكلمة » هو التلفزيون بالذات . ان الكلمة المسموعة الحية المندفعة بثقل مجلدات مطبوعة ، قد حلقت بدءا الى الاعلى ثم انتقلت الى الشاشة ، وقررت بعدئذ ان تبحث لنفسها عن جلساء في غرفتنا نحن .

ان التدفق الحي للكلام الشفهي قد ملأ حياتنا التي بدا كانها مصابة بالصمم .

(*) اي اضفاء الديمقراطية واشاعتها في ميدان ما . ـ المترجم .

ذات مرة تمرد المستقبليون ضد ذلك . فكتب ماياكوفسكي يقول : « يتلوّى الشارع اخرس » .

عادت الكلمة الينا . واصبح لدينا الان ما نعترض به على سقراط . لكن ذلك لم يحدث حالا .

لقد كنت في عداد الناس الذين بدأوا بصناعة السينما السوفييتية . وفي عام ١٩١٩ كتبت اول مقالة عن السينما . ثم شرعت اعمل في السينما منذ سنة ١٩٢٦ .

اننا اشتغلنا في السينما حين كانت ماتزال صامتة . اذكر من اعمالي الاولى واحدا كلفوني به في الورشة السينمائية ، وكان يجب علي ان اضع تعليقات على صوره . شاهدت الشريط ولصقت النص بين الكوادر . ثم عرض الفيلم على الشاشة ، فسمعت كيف كان الناس في قاعة السينما يقرؤون الكتابة بصوت خفيض ، لانفسهم ، ثم بصوت يأخذ في الارتفاع . امتلأت القاعة الصامتة بالضجيج .

لكان المشاهدين يحاولون استنطاق الصورة .

غير ان الصوت دخل السينما بصعوبة . لقد رفض كثيرون من رجال السينما التعامل معه . حتى انه كان عندي عبارة فحواها ان الصورة الناطقة هي تماما كالكتاب الذي يغني .

وأدركنا بالتدريج دور الصوت في السينما . ان السينما الصامتة علمتنا ان نتعامل معها بحذر ، وان نقدر الكلمة ونتحسسها .

اما التلفزيون فقد بدا يتكلم حالا . لقد ولد وهو يعرف جميع الكلمات . لم يكن ثمة مثيل لهذا الطفل ابدا . انه طفل عجيب ومدلل .

لكي تعرف قيمة شيء ما لديك ، عليك ان تفقده .

لاتلفزيون اليوم لا يقدّر قيمة ما يملك . انه امكانية عظيمة للحديث الحي على الشاشة . هو انسان حي ، وجليس على الشاشة . ومما يؤسف له ان مذيعينا يكونون احيانا شديدي الشبه بالصور الناطقة .

بالطبع ، انا لا استطيع دعوة جميع مذيعينا ليتحدثوا ، مثلا ، كايراكلي اندرونيكوف . ولكن لماذا لا يكونون اكثر مرونة وقدرة على ادارة الحديث ، بدلا من الاكتفاء بقراءة نص كتبه انسان اخر ؟

قبل حين شاهدت فيلما عن « بوشكنسكي دوم »(*) بمساهمة ديميتري سيرغيفتش ليخاتشوف(**) . ان كلمة « بمساهمة » غير دقيقة . اذ ان الفيلم معتمد على ليخاتشوف ، على رقة فنه في الحديث وتواصله الصادق مع المشاهد .

لقد تحدث ليخاتشوف عن بوشكن بهدوء ، دون ان يتلاعب بصوته في اي مكان . كان الحديث عن الثقافة . يبعث الزمن المروي بمهارة ومعرفة ؛ وتتوسع رؤيتنا وسرعان ما نغدو نبصر بعيدا في جميع الجهات

هـذا الفيلم كأنه تأملات رجل مسن وعارف ، أفكاره حـول شيء خاص ، حميم ، وهي مصورة بطريقة المصادفة ، دون الحاح .

كل شيء يجري أمـام عيوننا . كأن الاكاديمي ديميتري سيرغيفتش ليخاتشوف نفسه جالس أمامنا ويحكي لنا نحن عن بوشكن وزمنه . يبرز هذا الشعور عند كل مشاهد وفي كل شقة يعمل فيها التلفزيون . هذه الميزة العظيمة لفن التلفزيون هي « تاثير الحضور » . لكاننا حاضرون

(*) الترجمة الحرفية « بيت بوشكن » ، وهو مركز للبحث الادبي ، يقع في ليننغراد ، ويتمتع بسمعة علمية مرموقة بفضل نشاط باحثيه وقيمة المواد الارشيفية فيه . ـ المترجم.

(**) باحث أدبي بارز ، اكاديمي منذ ١٩٧٠ (ولد عام ١٩٠٦) . نال جائزة الدولة في الاتحاد السوفييتي مرتين . ـ المترجم .

بشكل لا مرئي اثناء وقوع الحدث ـ أثناء التفكير . ان تأثير التلفزيون يبرز كذلك لان شخصية الراوي المنسية تنبعث ايضا .

اننا نرى كيف تقوم التكنولوجيا بولادة ـ وبعث ـ المنسي من ثقافتنا

الفن والتكنولوجيا

في التاريخ الانساني كثيرا ما نرى كيف ان الوسائل التقنية التي يستوعبها الفن تنفذ الى الفن نفسه ، وتبدأ بالتأثير على تطوره .

هكذا دخلت طباعة الكتب الى الثقافة . وطباعة الكتب عززت تطور الرواية . كتب بوريس ميخايلوفيتش ايخنباوم(*) يقول : « ان الرواية شكل خليط ، وقد انجبته الثقافة المكتوبة بالذات . فالرواية تكتب ولا تسجل ، وهي تكتب من اجل القراءة تحديدا ان كلمة الراوي الحية تغرق في هذه الكتلة المكدسة ، حيث لا صوت . الحوارات الطويلة والتوصيفات الوثائقية الواسعة والموضوعات المعقدة ، كل هذه الشروط تجعل الرواية كتابا بالضبط » .

وهكذا يدخل التلفزيون حياتنا . امام عيوننا تولد اجناس ادبية جديدة ، وتبعث اجناس قديمة (القصة يسردها الراوي مباشرة ، او الحكاية) ، وتظهر نجاحات واخفاقات جديدة .

اذا قارنا الفن السينمائي باختراع الكتابة ، والكادر بالحرف ، والاشارة والعلامة الهيروغليفية (وهذه المقارنة كانت واسعة الانتشار في العشرينات) امكننا ان نقارن التلفزيون باختراع الطباعة .

ان الكتابة قد وضعت الصوت الحي في علبة الكلمة . بينما ازدادت الطباعة ابتعادا عن الكلمة . ولكنها انقطعت ايضا عن تعبيرية الحرف ـ

(*) ميخائيل ايخنباوم (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩) باحث أدبي سوفييتي اهتم بالجانب البلاغي اللغوي في الادب وكان من أنصار الشكلانية الروسية في مطلع هذا القرن . ـ المترجم.

الصورة ، أي عما كان يعني المادة ذات يوم . فالحرف المطبعي بعيد عن رسم على الحجر .

لقد قام التلفزيون بنشر وتعميم ما انجزته السينما يوما . وهو كثيرا ما يستخدم ما تم صنعه من قبل دون ان يلاحظ ذلك او يفكر فيه . لقد ضاعت صنعة الكادر وصنعة المونتاج .

ان بتروشكا عند غوغل يقرأ الكلمة مقطعا مقطعا ويستغرب كيف تتكون الكلمات من حروف متفرقة .

نحن لم نعد نعجب لذلك . اننا نقرأ دون ان نلاحظ الكلمات ، نقرأ آليا دون ان نقرأ الكلمات حتى النهاية ، كقولنا مثلا « ... كم السلام » بدلا من « عليكم السلام » .

هكذا ايضا نشاهد التلفزيون .

لعل السبب في ذلك يعود ايضا الى ان التلفزيون هو نوع متميز من انواع الفن لم نفهمه حتى النهاية بعد . ثم ان علينا الا نستخدم في العمل التلفزيوني نقاط تشابهه بالفنون الاخرى ، بل قبل كل شيء نقاط الافتراق معها .

الضيف المفاجيء

لقد لاقى التلفزيون اليوم قدرا من الانتشار والنفوذ يفوق ما حظي به الكتاب والسينما والمسرح . فهو بقتوة وبوقاحة يزاحم الفنون المشتركة معه وغير المشتركة .

هذا الغزو ـ الغزو التلفزيوني ـ كان عشوائيا ونشطا .

في طليعة هذا الهجوم كانت السينما . لقد كانت تقفز مثل المنادي امام فرقة الاطفاء . ففي روسيا القديمة كان ثمة مناد يحمل بوقا ويعدو أمام رجال الاطفاء معلنا ضرورة ان يتفرق الناس .

لقد تسلل التلفزيون الى بيوتنا . تسلل دون ان يستأذن احدا ، بل ودون ان يتكلم معنا مسبقا .

لقد اجلسنا التلفزيون معنا على المائدة . لقد لبسناه على رؤوسنا .

ما اكثر ما رأيت في حياتي . لكنني لم اكن اعرف ابدا انه بهذه السرعة يمكن اخضاع المدن والدول ـ والعالم بأسره .

اننا لم نكن مهيئين لهذه الاستضافة . لقد كنا ذاهلين ، وطال بنا النقاش : الن يدمر التلفزيون كل ما قد صنعناه .

خيل الينا ان العفريت المارد قد خرج من القمقم .

نحن الان اعتدنا على الشاشة الزرقاء : لقد دخل التلفزيون حياتنا. يبدو لنا الان ان الامر في منتهى البساطة : يجيء المرء : الى البيت ـ بشعله ـ بطقمه . او (وهذا اسوأ) : يأتون ببساطة ينصبون جهاز التصوير في الشارع ويشرعون بالتصوير .

ليست المسألة بهذه البساطة . فنحن لم نستوعب التلفزيون بعد . ان مصيره يرغمنا على تذكر تحذيرات افلاطون .

نحن لا ندرك مغزى ما يجري وما نشارك فيه . الساعة تتكتك وهذا مقياس لوتيرة زماننا ، وتيرة الضرورة التي ينبغي ان نعرفها .

لعل ما اقوله ليس اطراء كبيرا للتلفزيون ولنا . ولكنني اقوله مدركا انه مقدر لهذا الفن الجديد مستقبل رائع لن اراه انا .

الفن هو دراسة العالم ، هو امكانية استيقاف الانسان بغية ان نفهم من هو ؟ ماذا يرى والى اين يسير . في الفن ليس مهما ان ثمة انسانا ما، بل المهم ـ اي انسان هو .

يجمع الفن في نفسه انواعا متباينة وعميقة من أشكال ادراك العالم . انه يقدم امكانية أزكاء النقاش بين مواد المعرفة .

ولكنه كثيرا ما يبين ايضا زيف الفهم .

الفن شبيه بخريطة القبطان التي تشير الى التيارات والتيارات المعاكسة ، الى طريق السفينة وتنهدات الريح .

المستقبل عالم ضخم لم نبلغ شاطئه بعد. نحن نحاول مرة واخرى... ... تعود القوارب محطمة . هناك في مكان ما أمامنا يوجد اناس ايضا .

والتلفزيون لا يجوز ان يكون شيئا نملأ به فراغ المساء . انه يجب ان يكون وسيلة لمعرفة العالم .

مؤسف اننا قد بالغنا في تبسيط عملية المعرفة هذه . نحن نقدم معرفة دون تفسيرات . انها معرفة موهومة . انها وهم . فالتلفزيون عشوائي كحشد من الناس يتدافعون مسرعين للحاق بقطار يقلع .

ان الطفل يرى الشاشة قبل ان يتعلم القراءة . بل حتى وقبل ان يتعلم النطق . ويتاح للطفل أن يمل التلفزيون قبل ان يتمكن من فهم اي شيء ليس في التلفزيون ، بل وفي العالم حوله .

لقد حدثوني بأن الامريكيين اكتشفوا الان نوعا جديدا من الامراض العصبية لدى الاطفال . انه مرض الاعصاب التلفزيوني . لقد غدا الاطفال يدركون العالم بوصفه احد البرامج التلفزيونية . وعندما لا يعجبهم امر ما ، كأن يتخاصم الوالدان مثلا ، فانهم ببساطة يمدون اليد الى مفتاح التلفزيون للاستعاضة عما يرون بقناة اخرى .

يجب ان نشغل عالمنا .

التلفزيون هو الحلم والعينان مفتوحتان . انه الحلم الذي لم نكتشف مغزاه بعد .

دائما كانت الاحلام تلعب دور المتنبىء بمستقبل الانسانية . لقد تبين ان الحلم هو النافذة الوحيدة التي نستطيع ان ننظر عبرها الى الامام .

عن المستقبل

ما الذي يبدو لي ان علينا ان نفهمه في التلفزيون ونستخدمه ؟

انه ، كما سبق ان قلت ، امكانيات استخدام الكلام الشفهي لدى الراوي والجليس الذي يمكن ان يكون البطل الرئيسي في المواضيع التلفزيونية .

ان الكلام والكلمة يجب ان يصلا عبر الصدام المباشر مع الصورة . يجب أن نعطي الصورة لحما وخيرا ؟ . وهذا ليس دائم التحقق عندنا الى الان .

ينبغي ان نوسع استخدام فاعلية الربط ، المونتاج . ويجب ان نختار البرامج ليس بطريقة « التجميع » الاعتباطي ، او كما تباع الكتب محملة باشياء اخرى . اننا يجب ان نعي قوة المقارنة .

ان الزمن التلفزيوني ليس هو زمن الرواية . انه على الاغلب زمن مجموعة قصص او اقاصيص . وتنسيق المجموعات يجب ان نتعلمه على أيدي بوكاتشو وتورغنييف .

ثم اننا مازلنا لا ندرك بالقدر الكافي خصوصية الفن التلفزيوني العظيمة اي فاعلية الحضور . ان امكانات الريبورتاج ، مثلا ، قد تضاعفت عشرات المرات . فنحن نستطيع الان ان نعرف بالحدث بعد وقوعه بساعة او اقل بل وليس فقط ان نسمع ، وانما ان نرى ايضا كيف وقع .

اننا نعي ذاتنا في عالم متحرك .

لقد فقد الان واقعيته ذلك المثل القديم القائل : خير لك ان ترى مرة ، من أن تسمع مئة مرة . فنحن نرى الان ونسمع في وقت واحد .

ان التلفزيون هو امكانية حياة اخرى .

تتكون الان منظومة اعلامية هائلة سوف تشمل العالم . وها هو يقترب زمن الاتصالات الجماهيرية . ان الحياة تزدوج .

كيف كانوا يكتبون في الماضي عن الاخبار ، مثلا ؟ كانوا يكتبون كانما يفيظون القاريء . في الازمنة السالفة كانوا يكتبون ، مثلا ، عن وصول احد الامراء الى موسكو . ثم يضيفون الى هذا النبأ اشياء لم تقع هي اكثر مما وقع .

او نابليون ، على سبيل المثال ، انه لم يصدق بأن في وسع الالة ان تنسج شبكة : كيف يمكن ذلك ونهايات الخيوط خارجها ؟

هو لم يصدق لانه لم يستطع ان يرى . والخبر الذي كان واقعا بالفعل ، بدا له مختلفا .

وكانوا يقولون عن تشيتشيكوف(١) انه نابليون بالضبط . وبلاحظ غوغل أن هذا كان منتشرا على وجه الخصوص بين صفوف معتنقي الديانة القديمة . فبالرغم من معرفة كوروبوتشكا(٢) بانه لا وجود للارواح الميتة ، اذ ان الروح خالدة ، حسب زعمها ، فانها تسافر الى المدينة على خيول غير محدثة لتعرف السعر الحالي للارواح الميتة .

اما الان فاننا نستطيع ان نرى ما كنا نسمع به وحسب ، ان ننتقل الى قارة اخرى ونعرف السعر الحالي للارواح الميتة .

(١ و ٢) شخصيتان من رواية نيقولاي غوغل الشهيرة « الارواح الميتة » . المترجم .

ان التلفزيون يوسع بصيرتنا . فهو يصلنا بالعالم كله . يمكن للانسان أن يكون مرئيا من قبل العالم كله . والعالم كله سيراه .

جاء ماياكوفسكي مرة الى الاذاعة ، فسأل بعد ان نظر الى الميكرفون:

ــ وكم وراءه ؟

ــ كل العالم .

فأجاب الشاعر :

ــ هذا كاف .

التلفزيون هو اكثر الفنون ديمقراطية . لكنا لم نتعرف هذا الفن بعد انا لم نستوعبه بعد . نحن مقصرون عن اللحاق بالتكنولوجيا . الان يفكرون بتلفزيون الصورة الجديدة التي يمكن ان نشاهدها من اليسار واليمين والاسفل والاعلى . انها الصورة المجسمة . الهولوغرافيا . يبدو لي ، كرجل طاعن في السن ، ان هذا خيالي للغاية . شبيه بالشبح القادم من عالم اخر ، والذي تستطيع اليد ان تخترقه تماما .

يفكرون الان بتلفزيون الكابلات . بتلفزيون ينقل الرائحة . وظهر الفيديو .

يبدأ تشيخوف في الادب من قصته الرائعة « رسالة الى جار عالم ». وفي القصة هذه الكلمات : « هذا لا يمكن ان يحدث . لانه لا يمكن ان يحدث ابدا » .

اننا نعيش في هذا الـ « ابدا » غير المتوقعة .

فلنكن يقظين تجاه الحاضر من اجل المستقبل نفسه . فلنكشف اسرار ما يحيط بنا ، وما الفناء .

يجب ان نرى التلفزيون بعيون مفتوحة . ان نرى ونكتشف .

فيكتور بوريسوفيتش شكلوفسكي (١٨٩٣ ـ ١٩٨٤) كاتب وباحث ادبي روسي . ارتبطت باسمه الحركة الشكلانية الروسية في عشرينات هذا القرن . لكتبه عن ل. تولستوي ودوستويفسكي ومايا كوفسكي اهمية كبيرة . الى جانب كتبه في الادب تـرك شكلوفسكي قصصا فنية تاريخية المنحى ومذكرات . من اشهر كتبه النظرية كتابه « في نظرية النشـر » الصادر سنة ١٩٢٩ والذي اعيد نشره عام ١٩٨٣ في موسكو .

كان شكلوفسكي واحدا من اركان (جمعية دراسة اللغة الشعرية ـ اوبوياز) المشهورة والتي ضمت في صفها اعلاما كبارا امثال طينيانوف ، ياكبسون وايخنباوم ... الذين اولوا اهمية بالغة للجانب الشكلاني في العمل الادبي عبر امتزاجه بالجانب المضموني في آن معا .

عاش شكلوفسكي قرابة قرن من الزمان ، وتابع نشاطه حتى اخر ايامه . ونحن هنا نضع بين يدي القارىء واحدة مـن اخر مقالاته التي نشرتها « الثقافة السوفيتية » بتاريخ ١٢ تموز ـ يوليو ١٩٨٤ ؛ اي قبل وفاته بزمن وجيز .

* ★ *

صدر حديثاً من وزارة الثقافة والارشاد القومي

المدينة الاخرى

قصص

خيري الذهبي

< ☼ >

سلسلة مسرحيات عالمية «٧١»

تاليف
نيكولاي غوغول

ترجمة
الدكتور شريف شاكر

< ☼ >

مرح وكآبة

قصة

تاليف
كونتيس دي سيغور

ترجمة
حسيب كاسوحة

صدر حديثاً من وزارة الثقافة والارشاد القومي

تاريخ المسرح

الجزء الرابع

تاليف
فيتو باندولفي

ترجمة
الاب الياس زحلاوي

< ۞ >

أطفال منتصف الليل

القسم الاول

سلسلة روايات عالمية ((١١))

تأليف
سلمان رشدي

ترجمة
عبد الكريم ناصيف

< ۞ >

الاشباح الاربعة

مشاكل اجتماعية معاصرة

الجزء الاول

تاليف
استر ينشيف

ترجمة
فاروق بريك